الباب الثالث

الجواب عن الاعتراضات المنكرة

ليس في الإمكان سرد اعتراضات مبرهنة مقبولة ومعتبرة عقلاً وحكمة ضد الأسس الدينية. وإذ أن الماديين بعد هذا القدر من البحث والتحقيق والمناقشة لا يقدرون على إدراك ظهور الكائنات إدراكاً بعيداً عن الشبهة، وإثباته وإيضاحِه، ولا الكشف عن أصل المادة والقوة وماهيتها، وكيفية تشكل المادة وتفسيره، فلا يمكن أن يكون إنكارهم الخالق فوق الإدراك الذي تقر به الأديان- معتمداً على أساس منطقي. وإذ أنه تُشاهد دائماً مكتشفات جديدة، ويثبت اليوم بطلان نظرية كان يظن صحتها بالأمس، ويتحقق حادث بنظرية حديثة كان يُظن فيما مضى مستحيلاً؛ ولا تزال دائماً تتكشف أشعة مجهولة الماهية، وقوى وأحداث؛ فليس في طاقة المنكرين أن يجدوا أساساً ثابتاً متيناً صالحاً لجرح عقيدة أهل الدين بعالم غيب ممكن أن يكون مبدأ ومنشأ لهذه الظهورات المتوالية كذلك- كما هو أساس لعقائدهم- ونفيها.

ولو أن الإيمان بالغيب هو الشرط الأساسي للدين، والمغيبات أمور ليس في طاقة الحواس الخمس البشرية التعلق بها، وإنما تُحس ويفهم وجودها بما تدل عليه آثارها، ويمكن الاقتناع بها عقلاً كذلك، إلا أن ذواتها وحقائقها وحالاتها وشئونها- أعلى من إحاطة علم البشر بها، فلذا يُؤمن بها دائماً كما وردت في نقول الأديان. ومع ذلك لا سبب ولا محل

لإظهار العجز باختيار السكوت والاستغناء على زعم «أنه لا يمكن المناظرة في مسألة أعلى من إحاطة عقولنا وعلمنا»، إزاء ما يدعى الملحدون بأن المعتقدات الإسلامية من قبيل العبث والمستحيلات. وصحيح إنه لا يمكن إثبات جميع النقول بالحساب والتجربة، ولكن العقائد الإسلامية الأصلية من جملة الممكنات، وليست عبثاً ومحالاً. وهذه الجهة يمكن إقناع أرباب العقول السليمة بها عن طريق القياس والاستدلال العقلي. فلهذا يجب على كل مؤمن مثقف أن يبذل جهده وكفايته في هذا الشأن، لوقاية شبابنا من الضلال [٦١]. وكل فرد متفكر منصف يسلِّم مثلاً بأنه لم يكن في طاقة عالم أو جاهل قبل قرن من زماننا هذا أن يتصور إمكان إرسال نبأ بلا واسطة، في لحظة غير منقسمة، من طرف الدنيا إلى طرفها الآخر؛ فلو ادعى أحد ذلك لحكم بأن به مساً من الجن!

ومنذ بضعة أعوام من قبل أن تصير الطيارات والمطاود المسيَّرة قابلة للاستعمال كانت تنشر في المجلات العلمية مقالات العلماء الفنيين عن عدم إمكان استعمال الدفة في الجو، وتسيير المراكب الخفيفة إلى حيث يراد في أجواء السماء. والآن يمكن الاتصال بأمريكا والشرق الأقصى، وتبادل المحادثات في لحظة واحدة، ويتم الدوران حول الأرض في بضعة أيام بالطائرات. وبينا هذه الأمور أمام الأنظار، فإن إنكار ملائكة الله وموجوداته اللطيفة التي يتكفل بها نظام العالم، بدعوى أنها خارجة عن الإمكان- لعدم فهمنا بإدراكنا الضيق- لَبلادة كبيرة.

وأما المنكرون- فبعد إنكارهم لذات الخالق وأمر الخلقة والأنّية البشرية والروح- لا يرون أن في ظهور العوالم أمراً يعجز العقل البشري عن الإحاطة به، وأن الهوية البشرية نشأت من تركب بعض الذرات المادية وتحللها، وأن السجايا البشرية كالشجاعة والفتوة تتم عن طريق التيارات الكهربية العضوية، وأن الفكر عبارة عن تركيب مماثل لحمض الفورميك، والتفكير تابع للفسفور وأمثالها من الدعاوى. والذين يقولون بأن النقول غير معقولة وينكرونها ملزمون بإثبات دعاويهم- كالتي سبق ذكرها- عقلاً وحساباً وتجربة. وقد مضى نحو قرن على ظهور هذه الأفكار العجيبة، وظهرت منذ ذلك الزمن مخترعات محيرة للألباب كالحاكي (فنوجراف) والتليفون واللاسلكي وأشعة روتنجن والراديوم ونظريات الكهيرب، وأمثالها من المكتشفات العلمية، ولم تكتشف وسيلة واحدة مدعمة لتلك الدعوى المجردة، ولم يستصوبها مخترع أو مكتشف جاد. وأظن أنه كما لم يأت إلى الآن صاحب عقل سليم يسلم بإمكان حدوث الفكر والملاحظة بالإفرازات الجسمانية والتركيبات الكيميائية، وإمكان حدوث الخصلة والسجية بالتأثيرات الكهربية، فإنه لن يظهر بعد الآن أيضاً. فليثق شبابنا بأن التطورات العلمية سوف تؤيد الإيمان بالمعنويات والمغيبات، وخالق الكائنات، كقول هرشل المذكور في الباب الأول من هذا الكتاب.

ومن جهة أخرى يجب على علماء الدين أن يجتنبوا في التفاسير وإيضاحاتها البيانات الواهية المغايرة للعقل والعادة، المتعارضة مع المحققات والقوانين المثبتة المادية، متجاوزين حدود عالم الغيب

والاحتمال، حتى لا يعطوا أعداء الدين وسيلة الاعتراض، ويشحذوا سلاح اعتراضهم.

ليست في الدين الإسلامي أحكام وقواعد يمكن علمياً إثبات مغايرتها للقوانين الطبيعية. بيد أن في كثير من الأديان والمذاهب التي نشأت من الباعث المعنوي والاحتياج الطبعي للبحث عن خالق وإجلاله، وتهذيب الطبائع والأخلاق البشرية وتحسينها، والتي يلزم أن يكون كلها صحيح الأساس بهذا الاعتبار- ظهر أشخاص حاولوا شرح المعتقدات الأصلية، وتوسيعها حسبما يزعمون، فجعلت بدعهم وعلاواتهم تلك الأسس الاعتقادية مخالفة للعقل والحكمة، وفتحت باباً لكثير من الظنون الباطلة[٦٢].

ولما كانت التطورات العلمية والحكمية تحدث منذ عصور عديدة منحصرة في عالم النصرانية [٦٣]، فإن الاعتراضات الجدية كانت ضد العيسوية. وإذ أن المعتقدات النصرانية المعترض عليها قد اكتسبت القطعية بأحكام وقرارات البابوات والبطاركة، الذين يُعدون معصومين من الخطأ، والقناصل (Conciles) الذين يعدون ملهمين من روح القدس، فمن الجائز أن يعترض عليها حين تظهر مغايرتها للبديهيات العلمية. إلا أن العقائد الإسلامية التي أوضحتها في الفصول السابقة، ليست فيها عجيبة كتلك. فليس في الإسلام لا بابا غير مخطئ، ولا قناصل ملهمون، ولا منع المناظرة والاستدلال في الأمور الاعتقادية! وعلى ذلك، ليس من الحق في شيء أن نحمل على عوانقنا بعض الاعتراضات الصريحة أو

الضمنية، التي يوجهها بعض علماء الغرب على مذاهبهم غالباً، وأن نضم إليها ما ينشرها بعض الناس ضد الإسلام، بدافع من نيات سياسية، أو خصومات مذهبية، وأن نقربها دون أن نرى لزوماً لسماع الجواب عما اعترض به عليها، والدفاع عنها، فنترك ديننا الذي هو تراث آبائنا وأمهاتنا المعنوي، ونهينه بدون اكتراث.

كنت منذ خمس وأربعين سنة طالباً في مدرسة أركان الحرب، وكان أحد زملائنا يكرر دائما هذه العبارة: «هأنا ذا أنكر الله، وإذا كان موجوداً وقادراً فليصعقني وليقهرني»! والواقع أنه لم يقهر وحيا. بيد أنه ارتحل من هذه الدنيا بعد خمس سنوات أو عشر، في ضروب من العلل والأمراض والفقر والإهمال والمذلة. ليت شعري من أين تأتي مثل هذه الأفكار الفاسدة لشبابنا!؟

بسورية قوم يعيشون عيشة المسلمين على آراء باطلة. وقد تقرر في عهد السلطان عبد الحميد إنشاء مدارس ابتدائية لإصلاح عقائدهم، وتعليم أطفالهم الدين، على أيدي مدرسين سنيّين. ولما كنت في ذلك التاريخ موظفاً بسورية، وكنت أجول في تلك الجهات- بحكم عملي- اتصلت بهؤلاء القوم، وبالذين سُلطوا عليهم باسم المرشدين. ففي ذات يوم سألت مدرسا: ما مبلغ تعلمك؟ فأجابني بأنه تعلم حتى الإظهار. فقلت له: ما الإظهار؟ ففكر ملياً، ثم قال: «هو الفعل الماضي، والله أعلم». أرجو ألا يُظن أني مبالغ، فقد ذكرت الجواب عينه! لقد بينت في اللائحة التي قدمتها إلى المشرفين عدم إمكان الإفادة من أمثال هذا المدرس،

وحتى من هُم أعلم منه، لأن المبادئ والعقائد التي تدرس في تلك المدارس، لتلاميذ في الثامنة أو العاشرة من أعمارهم، تمحي وتزول بما يتلقونه في أسرهم، فلو أنشئت في هذه الجهات مدارس ثانوية يدرس فيها قليل من علم الفلك الوصفي (Cosmographie) والجغرافيا، مع دروس عملية مفيدة، لتفتحت أذهان الشباب بفهمهم الدنيا، ونجوا من المعتقدات الباطلة، وسهل بعد ذلك إرجاعهم إلى طريق الحق. [وأفكر اليوم، يا تُرى، هل تعمل أشخاص متعصبون تعصباً دينياً، أو ذوو أغراض خاصة، أو جماعات أو جمعيات خفية، على توهين عقائدنا في حدود ما اقترحت، ولكن مغرضة لا مخلصة؟ إني أرى أن الجامعة الدينية تمنح الأقوام قوة ومنعة؛ فلذا يجوز أن يكون في هدم هذه القوة المتساندة منافع ومقاصد لكثير من الأشخاص ذوي المطامع والأغراض والجمعيات المعادية].

ظهر منذ مدة كتاب ألفه ن. سيمون بالفرنسية، عنوانه «سياحة مضحكة بين العقائد والأديان» ذهب فيه المؤلف من حيث الأساس مذهباً ضد فكرة التدين إطلاقاً، ولا سيما الموسوية والعيسوية، مع عدم الضن بالتعريض بسائر الأديان، وأورد بعض جمل تهكمية في حق جنات الدين المحمدي ومعراجه ليس إلا.

إن هذا الكتاب الذي حظر البابا على الكاثوليك قراءته، راج في بلادنا منذ خمس وثلاثين سنة رواجاً عظيماً. لأنه استطاع أن يضلل الأفكار كما ينبغي بكلمتين أو ثلاث كلمات قالها عن معراج الإسلام وجنانه، وهو

دين متشعب من ملة إبراهيم وموسى، وذلك بعد أن هيأ الأفكار ببياناته الصحيحة والخاطئة ونقده لسائر الأديان.

فلسفة شوبنهور ونيقشة:

وخليق بالذكر أيضا أنه قد راجت عندنا أيضا قلسفتا شوپنهور ونيتشه والمتعارضتان، تلقن إحداهما اليأس، والأخرى الحرص والتهور، كأن الدنيا خلت من فلاسفة سواهما- وهما متضادان فكراً ويتساويان من حيث ضررهما على الأمم. ولما لزم في الزمن الأخير ترجمة كتاب في تاريخ الإسلام من اللغات الأوربية، اختير كتاب «دوزي»، وهو ألد أعداء الإسلام! إن حمَلْنا مثل هذه الحالة على تشويق وتلقين، فهل نكون مخطئين؟

مهما يكن من شيء فإن ما ذكرت من الفلسفات والكتب، اتحدت مع بعض أخطاء داخلية، فقلبت مجتمعنا رأساً على عقب. ويتضح بأدنى تأمل وتحقيق أن ديننا وعقائدنا أسمى في الحقيقة بكثير من إسنادات ن. سيمون، ومن تلك المذاهب الفلسفية المتناقضة، وأهدى إلى طريق السداد والسلام، في الدنيا والعُقبى. فالالتفات إلى أمثال تلك المفتريات المغرضة، والتهكمات الوقحة، والميل بلا بحث وتحقيق إلى أفكار باطلة- ليس كفراً حسب، وإنما هو عيب وذلة في هذه الدنيا أيضاً.

استطراد

معاتبة العلماء

أوهام الجهال:

لو فُكِّر بالإنصاف حقاً لتوجه بعض هذا العيب وهذا الإثم على علماء ديننا، وخاصة إلى الخلافة الإسلامية المنقرضة، والمشيخة الإسلامية الملغاة. فإن إهمال تلك المقامات هيأ فرصاً مواتية لتلك الهجمات الخارجية. وما كان ينبغي أن يكون معنى سامٍ كالدين ألعوبة في يد مؤلفين جهال، ووعاظ أجهل منهم!

إني ألتمس من العلماء الحقيقيين عدم التأثر مني، من أجل ما ذكرت، وما سيرونه من الملاحظات، فإن ما انتزعته من أعماق قلبي، وثبته في الصفحات- إنما هو نية بث الشكوى إليهم باسم الدين، من بعض علماء رسميين يلبسون أثوابهم وعمائمهم فارغين، محرومين من علومهم وأعمالهم.

ففي الأناضول كتب لا تزال متداولة، ملأ بها الإيرانيون آسيا الصغرى، خلال المنازعات المذهبية والسياسية بين السنيين وبين الشيعة، أو بين العثمانيين وبين الصفويين لاستغفال العوام- ولعل الإيرانيين نسوا تلك الكتب وأهملوها- ومما ورد في تلك الكتب أن ضربة من ذي الفقار، بيد عليّ الكرار، اجتازت طبقات الأرض السبع، وكادت تشطر ثور الأرض،

لولا أن وصل جبرائيل، فأمسك بذلك السيف القهار، ومنع الهرج والمرج؛ وأن الرعد والبرق ينجمان من غضب علي، الذي عرج إلى السماء بعد وفاته، ومن صياحه. والفرق بين هذه العقائد السخيفة وبين أساطير الأولين، هو أنها أغلظ من الأساطير. ويفهم بأدنى ملاحظة ما يمكن أن تبلغ هذه المعلومات المستنبطة من تلك الكتب في لسان أولئك الوعاظ والمرشدين، الذين يسمون كلمة «الإظهار» الفعل الماضي.

لقد سمعت واعظاً في صباي يقول: إن الأرض ممتدة على قرن ثور، والثور واقف على ظهر حوت، والحوت يعوم على سطح بحر، والبحر قائم على القدرة الإلهية. وهذه الحكاية وهي تذكرنا بحكاية «مئذنة فوق مئذنة»، جائز أن تكون في بدئها متفرعة ومتشعبة من كون الأرض في بُرجَي الثور والحُوت. وكانت نظرية فلك بطلميوس المتداول في أيام البعثة المحمدية تفرض الأرض ثابتة في مركز العوالم، والقبة السماوية دائرة حولها. وأما القرآن المجيد، فقد قال في صورة موجزة معجزة: إن الشمس مستقرة في مجموعتها، والأجرام سابحة في فلك، وبينا الأمر كذلك، أليس تلقين الناس ما حكيته من الأباطيل مختلطة مع العقائد الدينية أثر جهل وحمق يحير العقل، ويضيق به الصدر، والإذن به من أكبر الكبائر؟! لقد ورد في الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، أن الغيب لا يعلمه إلا الله، وأن مجرى الأمور لا يتغير، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وبناءً على ذلك مُنع الرمل والتنجيم والعيافة والتشاؤم والتطير وغيرها- منعاً باتاً، ومع ذلك لا يزال كثير من الجهال يلقنون تلك الأمور الباقية من

الوثنية في صورة وصايا، بل في صورة الضروريات الدينية. وكلما بحث الإنسان ودقق النظر، شاهد بكمال الأسف والدهش أن كثيراً من الناس كانوا يتلقون الحقائق الدينية الإسلامية في داخل البلاد الإسلامية وخارجها- على عكسها! ولا يزالون يتلقونها كذلك!

وكل صاحب دين ومذهب مكلف الدفاع عن دينه واعتقاده- ولو بوسائل لينة وحسنة- والجهاد في سبيل نشرهما وإعلاء كلمته. فهل كانت مقاماتنا الدينية ودوائرنا المذهبية تقوم بهذه الوظيفة تحقيراً لديننا في أفواه الجهال.

إن حسبان كل من يؤلف كتاباً معصوماً من الخطأ، وترك كل من يذهب إلى قرى ليعظ الناس مطلق العنان، قوالاً لما يريد- قد أنتج لأمتنا ومجتمعنا أضراراً ومساوئ جد خطيرة. فإن الهذيانات التي ذكرت أمثلة منها آنفاً، إذا قُرئت في كتب أو سُمعت في جوامع وزوايا ظُنت في خارج إستانبول، بل هي في الأسر المقيمة بالأحياء المتطرفة بإستانبول نفسها- من العقائد الدينية؛ يسمع الأطفال هذه الخرافات من أولياء أمورهم، ولاسيما أمهاتهم، ثم يذهبون إلى المدارس، ويتلقون قليلاً من مبادئ الجغرافيا والكزموجرافيا والكيمياء والطبيعة، فيُدهشون في بادئ الأمر. وكلما زاد عجزهم عن حل ما يشكون فيه وشاهدوا وجها عبوسا من أئمة المساجد، الذين يظنونهم علماء قادرين على حل شكوكهم، ازدادوا شكاً وريبة، ومالوا إلى وادي الإنكار، وصاروا من أعداء الدين.

أوهام الخواص:

فلندع الآن ما يدور من القيل والقال بين الجهال ولننقل الحديث إلى بعض الأوهام السارية في الطبقات العالية. فعندنا رجل من المعتقدين يُدعى «يازيجي أوغلي» وقبره بكليبولي مزار الجميع، وله كتاب منظوم عنوانه «محمديه». وقد ذكر فيه بلغة رقيقة مثيرة للحزن أن من بواعث شهادة الحسنين رضي الله عنهما «أن الرسول صلى الله عليه وسلم قبّل الحسن صبياً من فيه، والحسين من جيده، فغضب الله على إظهار نبيه حبه لغيره، فقدر موت الحسن مسموماً، والحسين مذبوحاً»!

لا أدري كيف يعجب امرؤ يضع نصب عينيه ما وضع شرع الله من الحد لعاشق حسود قتل حفيدي حبيبه لحبه إياهما ممن يُسند فعلاً مثله إلى الله سبحانه وتعالى؟!

إنه وإن كان مما يلزم الاعتراف به مع الشكر والثناء، أن علماء السلف قد ألفوا كتباً ناقضة ومُبطلة لتلك السخافات المبنية على الأوهام، وحتى على روايات ضعيفة، إلا أن تلك الكتب ظلت مجهولة للسواد الأعظم. وإذ كان الناس- ولاسيما الجهال منهم- ميالين إلى الضلالات أكثر من الأمور الجدية، فقد تشعبت هذه الخرافات بين أكثر الناس.

وإن التجأ أحد إلى بعض العلماء اللابسين كسوة العلماء لإزالة ما بذهنه من شبهة إزاء ما في هذه الرواية وما يشبهها من الروايات المضادة للعلوم والفنون، المغايرة للحكم والأسس الدينية، رُد عليه بأجوبة كلها

عتاب وتوبيخ، كقولهم «لا يُتدخل في أمور الله. فهل يُعجز الله أمر؟! ألست بمؤمن بالمعجزات؟!» وقد نسوا أن أحد أولى العزم من الأنبياء العظام طلب إلى الله بُرهاناً ليطمئن قلبه. وقد يُكفرون من لجأ إليهم بنية خالصة [٦٤].

لا ينكر عاقل ما لله سبحانه من قدرة مطلقة، لأن قطعة من حجر قد يتجلى في ماهيتها الحقيقية أثر قدرة وحكمة أعلى مما يتصوره البشر في خياله باسم العجيبة والخارقة، والمعجزة، ويقدر على إظهارها من الوقائع والأحداث. إذن فتصور العجز لخالق السموات وما تحتوي، وصانعها- لا يكون سوى جهل وحمق. فليست النقول الدينية لا يردها مؤمن موحد حسب، بل لا يردها متفكر متفنن أيضاً بلا دليل- كما يردها الملحدون الجهال. إن العلماء الحقيقيين الذين يشاهدون إمكان حدوث الثلج من بعض مواد كيميائية على ألواح معدنية بلغت حرارتها البيضاء مئات الدرجات، وإمكان عدم احتراق الأعضاء البشرية التي دخلت قضاءً وقدراً في هذا المعدن المذاب لتبخر العرق، ويطبقونه على العلم، ويشاهدون أيضاً كثيراً من الحوادث والمسائل التي كانت من المستحيلات في النظريات العلمية القديمة وصارت من الأمور الطبيعية والعادية- لا ينكرون أمراً ما بسهولة وبلا تأمل. قال آراجو (Arago) من أشهر حكماء القرن التاسع عشر: «إن من ينطق بكلمة «غير ممكن» خارج الأبحاث الرياضية البحتة- أي ما دام لا يخالف الأحكام الرياضية- يكون ناطقاً بلا تدبر؛ إنه لقول حكيم حقاً.

لو دخلنا ساحة الروحيات والوجدانيات والحسيات لصادفتنا حالات كثيرة لا سبيل لتفسيرها وإدراكها بالعقل والعلوم الموجودة. فهناك حالات كثيرة يظهرها سالكو الطرق العلية الصوفية منذ القدم، ولم يمكن حتى اليوم إسنادها إلى حيلة مثبتة- برغم ما بذل من التحقيقات- وليس في الإمكان بلوغها عقلاً»[٦٥].

وخلاصة القول أنه إذا نظر امرؤ في نفسه وإلى من حوله بدقة، وتذكر حياته الماضية، وتفكر فيها، فهم أنه محاط بكثير من غرائب وأسرار، وآمن بوجود عالم غيب مصدراً لتلك الأمور وأصلاً. بيد أن إدراك تلك المظاهر والحوادث والتفرس فيه في حاجة إلى الوقوف العلمي مع استعداد خاص؛ فعبارة «المعلومات القليلة تخرج الناس من الدين، والتتبع العميق يعيدهم إليه» لروجي باكون من حكماء الإنجليز، قول جِدْ حكيم:

وبرغم كل هذه التصديقات لابد من وجود تناقض في تلقينات العلماء بين بعضهم وبعض وبينهم وبين الحقائق العلمية- ولاسيما للإسلام- فإنه شرط أعظم. فكلمة «أومن به لكونه مستحيلاً» تعتبر دستور إيمان في سائر الأديان. وأما في ديننا فالمرجح هو الإيمان الاستدلالي، وأبواب المناقشة مفتوحة على مصاريعها.

معجزات الأنبياء:

أما في مسألة المعجزة فبعد الإقرار بتعلق قدرة الله بكل شيء، يجب النظر إلى الفكرة الآتية: إن إظهار الأنبياء العظام المعجزات لإقناع الناس برسالاتهم- موافقة لاستعداد القوم الذين بُعِثوا فيهم، والزمن الذي بعثوا فيه- من جملة النقول الدينية. فقد كان المهم في زمن موسى السحر والكهانة، وفي زمن عيسى الطبّ والحكمة، وفي زمن محمد الفصاحة والبلاغة؛ فظهرت معجزات هؤلاء الرسل العظام، وتجلت في صورة التفوق العظيم في العلوم والصناعات المرغوبة بين الناس في زمانهم. وأما القرن الذي نحن فيه فالأهم فيه والمقدم هو العلوم العقلية والطبيعية. فالأذهان لا تستطيع أن تقبل النقول المتعارضة مع العلوم. كان الأوائل يطالبون بمشاهدات خارقة للعادة، حتى يقتنعوا بالأمور المعنوية. وأما الآن فيبحث عن توافق النقول مع العقل والمنطق.

فالقرآن المجيد يعجز دائماً العلماء المتبحرين، كما يعجز الفصحاء والبلغاء بمعجزاته الباهرة- في صورة إقناع الاحتياجات الفكرية لكل زمان.

رد الرسول صلى الله عليه وسلم على من طالبوه بالمعجزات لإثبات رسالته بقوله تعالى: «سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً» الإسراء الآية ٩٠ – ٩٣، وقوله « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي» الأنعام الآية ٥٠. والحق أن

الأصحاب الكرام لم يطالبوه بالخوارق للإيمان بنبوته، وعدوا بلاغة القرآن وما بلغ من الحقائق برهاناً كافياً. ولكن ما الحيلة؟! فقد جاء بعد عصور فريق ممن لبسوا زي العلماء، وحشروا ما سمعوه في الكتب، وصاحوا من فوق كراسي الدروس، فحمّلوا وجدان الشباب أحمالاً من تلك الأراجيف التي لا يطيق حملها.

إن الرسول أظهر بعض معجزات أيضاً برغم اجتنابه: وفي جملتها انشقاق القمر. ويعترض الحكماء وعلماء الفلك على هذه المعجزة كما يلي: «القمر كرة قريبة الحجم من الأرض (قطر القمر يزيد قليلاً على ربع قطر الأرض) على بعد وَسَطي مقداره نحو ثلاثمائة وستين ألف كيلومتر، وتدور حول الأرض في مدة معينة. وتؤثر بقوتها الجاذبة في حادثي المد والجزر، وكثير من التحولات الطبيعية الأخرى. فانشقاق كرة عظيمة مثلها فجأة كان يقتضي أن يؤثر تأثيراً خطيراً في ظهر الأرض، وربما في النظام الشمسي كذلك. ومن جهة أخرى يشاهد القمر في وقت واحد على ارتفاع مختلف من نصف الكرة الأرضية. فظهور حادث خارق للعادة كهذا في نقطة واحدة في الحجاز- مع وجود مراصد لدي أمم كثيرة متمدينة إذ ذاك- وعدم مشاهدته في بلاد الفرس والهند والصين مثلاً، مناف للعقل والعلم»[٦٦].

ومع أن دليل المنكرين الآنف الذكر قوي جداً وواضح فإني أرى أنه يفقد قيمته وخطره بإزاء دليل واحد وارد في الصورة الآتية: «يكون كل حادث بمثابة لا شيء بالقياس على ما تشاهد من القدرة في خلقة

الكائنات». بيد أن أدلة الحكماء هذه العلمية المؤلفة من الصغرى والكبرى أكثر ملاءمة للأذهان العامة من برهان بسيط مبني على العقيدة، وأشد تأثيراً. وليست غاية المعجزة إضلال الناس، بل إيصالهم إلى طريق الحق.

وبناءً عليه ألم يكن أوفق لعلماء الدين محاولة إقناع من يرجع إليهم في حل المشكلات بمثل ما سنذكر من مباحثه بدل ردهم عليه بخشونة؟! هاك تلك المباحثة:

«يُروى أن المشاركين قالوا للرسول مجادلين: إن كنت نبياً حقاً فشق هذا القمر الطالع، فأشار الرسول إلى القمر فرئى شقان».

وشاهد الحادث كثير من المؤمنين وغير المؤمنين، وانتقلت الرواية إلى الخَلف. وإذ أن الرواية مشهورة فلا بد من قبولها. وليست في كيفية الرؤية هذه ما يخالف قانون الطبيعة أي السنة الإلهية التي لا تتغير- لم يكن انشقاقاً كما صوره بعض الجهال:

أولاً: لأنه يمكن أن يحدث بعض الأحداث الجوية والنسيمية، بعض مناظر في الأفق، وخاصة في المناطق الحارة، تشاهد في مناطق محدودة ولا تشاهد في غيرها.

وثانياً: لأن الكرة القمرية قد ظهرت فيها اختلالات كبيرة وانفجارات جبال بركانية؛ فليس من المستبعد علماًأن يظهر انفلاق [٦٧] أثناء تلك المناقشة، وأن يظهر في شكل هائل، بإنكسار الضوء، لوجود القمر إذ ذاك

فوق أفق الحجاز المواتي جداً لأحداث السراب. فظهور الحالتين المذكورتين، أو أي حادث من الأحداث الطبيعية الممكن حدوثها بالقدرة الصمدانية، بإشارة من الرسول صلى الله عليه وسلم حين سؤال الناس عنه- معجزةٌ. فمثل هذا الرأي مبرهن ببراهين كأدلة دعوى المنكرين؛ فلذا ينبغي لعلمائنا أن يتحملوا مشقة مثل هذه المباحثة لإرشاد الناس.

بيد أن المعجزة القرآنية تظهر وتتجلى في صورة أخرى، وإذ كان المنظار المقرب لم يُخترع في عصر السعادة [عصر النبوة] فإن معلومات علم الفلك عن القمر، كانت منحصرة في تعقب صفحات هذا الجرم، وتعيين خسوفه وكسوفه. ولم يكن معلوماً لا حجمه ولا بعده عن الأرض، ويتضح الآن من مطالعة مُصَوَّر القمر المرسومة بصحة تامة وقوع كثير من الاختلال والانشقاق في القمر.

القمر محروم الماء والهواء النسيمي، وسطحه من أوله إلى آخره حُمم بركانية خامدة. لقد فُهم الآن أن هذه البراكين ثارت فشقت قشر القمر، ودفعت المواد المشتعلة إلى الخارج، فجعلت الكرة محرومة الرداء الحارس النسيمي خارجاً، والحرارة المركزية داخلا على أغلب الاحتمالات. إن بيان القرآن حالة كهذه بياناً موجزاً في زمن لم يكن في الدنيا أحد يتخيل مثله- لمعجزة باهرة.

ذكرنا سابقاً بالمناسبة وجود عالمين اثنين عالم الشهود والمادة ندركه بحواسنا الخمسة، وعالم الغيب الذي لا يعلم إلا بآثاره، أو على الأقل نحس ونعقل عالماً أثيرياً غير مادي. لقد تعمق علم البشر في العالم

المادي، فاستطاع أن يثبت بالعلوم اليقينية والتجريبية كثيراً من قوانينه، وأغلبها من القوانين الطبيعية، وموضوعات وسنن إلهية، فلذا لزم عدها غير متغيرة [٦٨]. على شرط ألا ينكرها العقل وينفيها.

أما العالم المعنوي وهو أصل حقائق الموجودات، وخاصة العالم الأثيري، فلم يُوصل إلى كشفه بعد. فقد توسم فيه الذكاء البشري من بعض آثاره، ونفذ في بعض أسراره ما أمكن، إلا أنه لم يقدر على إدراك كنهه ولا يزال متوقعاً أن يدرَك بعض آثاره، ولكن لم يمكن الوصول إلى غايته وماهيته الأصلية والنفوذ فيهما. فعلم البشر- كما يقول الفيلسوف هربرت سبنسر- يتوسع إلى كل الجهات، على صورة كرة محدودة داخل أسرار معنوية غير متناهية، إذ أنه كلما توسع كبر سطحها المماس لأسرار هذا العالم المعنوية- فقد زادت حيرته، وبان عجزه.

وبناءً على هذا القول الحكيم؛ إن المنحرفين بلا تفكير إلى إنكار الأمور الاعتقادية، هم أولئك الذين لم يفهموا عجزهم، أي الذين لم تكمل كرة علمهم بعد.

هكذا يمكن دائماً وقوع حالة خارقة للعادة متعلقة بعالم الأثير. وإنكار هذا الإمكان والاحتمال ما هو إلا مكابرة. فكل رواية ونقل لم يدخل في نطاق العلوم اليقينية، ولم يثبت بطلانه- يحتمل الصدق والكذب. ولكن ينبغي التأمل والاحتياط في تلقين الأمة روايات مغايرة لبعض القوانين الثابتة لعالم المادة والشهود.

وبناءً على ذلك:

أولاً: يجب ترجيح الشق المعقول بلا تردد في المسائل الاعتقادية المختلف فيها. ففي كل صحيفة من القرآن الكريم آية آمرة بالتعقل والتفكر. والأحاديث النبوية في المعنى نفسه جد كثيرة. فنحن إذن مضطرون ديناً للتفكر، واختيار الشق المعقول.

رأي المؤلف في المعراج:

أريد بهذه المناسبة أن أقول بعض كلمات حول المعراج، وهو موضوع يتخذه خصوم الدين وسيلة للطعن على ديننا. إن ما نُكلف الإيمان به بنص القرآن هو السير في ليلة واحدة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى. وإن الادعاء بعدم إمكان تعلق القدرة الإلهية للتسيير بوسيلة ما لما يمكن الآن سيره بطائرة، خليق بالاستهزاء أكثر من الإيمان بوقوع السير. وقد ثبت تواتراً مشاهدة بعض الناس في أماكن مختلفة في وقت واحد، وتأيد ذلك بتحقيقات كميل فلا ماريون [٦٩].

أما وصوله إلى الله- وهو القسم الثاني- فليس بمستبعد على الروحانية النبوية، أن يفوز لحظة بوصاله تعالى في الدنيا، وقد وُعِد به المتقون، ليكون لهم جزاءً أوفى في الآخرة. وكل ما فيه أنه إذا صُوِّر جسمانياً تعارض مع كثير من القوانين الطبيعية، وحدثت مخالفات للأحكام الدينية؛ كإسناد محل معين لله، فيكون سبباً لاستخفاف كثير بالدين وكفرهم. ومن المعلوم أن كثيراً من الصحابة والتابعين اختلفوا في وقوع المعراج: كان

جسمانياً أم روحانياً؟ وقد اختارت عائشة رضي الله عنها الرأي الثاني. وفي رأيي- ورأيي قاصر- أن الروايات والأدلة المسرودة في كونه روحانياً أقوى وأقرب للمنطق [٧٠]. ثم إني عثرت في تفسير سورة «والنجم» لخواجه وهبي أفندي من فضلاء زماننا على حديث «رأيته بفؤادي»؛ وهذا أيضاً يؤيد الرأي الثاني. في حين أن أكثر الناس عندنا يعتقدون بوقوع المعراج جُسمانياً. ومنظومة المعراج لسليمان چلبي مُشَوِّشة للأذهان، فينبغي للعلماء قبول الشق الثاني وإذاعته للناس.

وثانياً: من العبث ذكر بعض الإسرائيليات غير الواردة في نص القرآن في صف المعتقدات الدينية، لورودها في كتب بعض المفسرين، وينبغي منع هذا الحال الخليقة بالأسف، ولا جرم أن المفسرين حين يذكرونها يشيرون دائماً إلى ضعفها.

وثالثاً: لا ينبغي اجتناب تفسير بعض المسائل التي تبدو في الوهلة الأولى كأنها مستحيلة- تفسيراً علمياً، كانشقاق القمر الذي سردته آنفاً.

ورابعاً: إذا شوهد تعارض في النقول ظاهراً- يلزم أن يكون ناشئاً عن عدم الفهم- فيجب العناية بإزالته على أن يُضحَّى بالفرع للأصل.

وخلاصة القول: إنه يمكن استمالة الناس اليوم، وجذبهم إلى طريق الحق- بالمعقول. فيجب البحث عن الزوائد والأباطيل التي أُدخلت في الدين حيناً بعد حين، وطيها، وبحث تعارض النقول بعضها ببعض،

وببعض موضوعات العلوم- تعارضاً ظاهرياً وحله بعد التمحيص والنقد علميا وعقليا:

أذكر هنا بمناسبة أن إرهاب بعض العلماء أهل الإيمان لأخطائهم الخفيفة بشدائد عذاب الآخرة، ولعنهم وتكفيرهم، يوقع كثيرين في يأس وانفعال، ويدفعهم للإلحاد. فلبس القبعة وإبداء عدم الحب ببعض ما كان يحبه النبي، والأمر بكُلْ هذا، واشرب ذاك، كلها كفر! وأنا أرى عدم انكسار الرابطة الدينية والإيمان بمثل تلك الصدمات التافهة. وإذا قصد امرؤ بتلك الأقوال تحقير الدين، والاستهزاء به، أو إنكاره فهو غير مؤمن. وقد كفر دون حاجة إلى تلك الأفعال. وقع نظري على قول: «ملعون من لعب «بالشطرنج» بين الأحاديث الشريفة المندرجة في رسالة عنوانها «كنز العرفان»! على حين أن الإمام الشافعي رضي الله عنه اكتفى بأن عده مكروهاً. وما كان لإمام مجتهد كمثل الإمام الشافعي أن يخفف ما نهى عنه النبي مشدداً. فتناقض كهذا يحير كثيراً منا. وكل أمة ملزمة تنشية أفرادها، وتهيئتهم لمنازعات الحياة في هذا العصر. فكل رجل من رجال الدولة، بل حتى من أفراد الأمة في حاجة إلى الاشتغال ببعض أمور مسكنة أو منبهة أو مثيرة، لشحذ الذهن، وتسكين الفكر وإثارة الإحساس، وتنبيه الأعصاب، وتمرين الأطراف، بعد الفراغ من عبادته المفروضة، ومشاغله الدنيوية، ولا يمكن مطالبة كل إنسان في هذه الدنيا، وفي هذا الزمان- بالتخلق بأخلاق الأصحاب والأسلاف، والتطبع بطباعهم، والحياة المدنية الحاضرة لا تشبه حياة البدو في هذا العصر، بله الحياة

البدوية في الأزمان القديمة؛ فالممارسة المكتسبة في ذلك الزمن وفي تلك البيئات يمكن حصولها الآن تقليداً في بيئة مدنية؛ فمن الأوفق عدم التشدد في بعض الألعاب، اعتماداً على روايات ضعيفة. و«الحلالُ ما أحل الله في كتابه، والحرامُ ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا لكم»، و«إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان، فلا تبحثوا عنها» صدق رسول الله.

رأى المؤلف في الأحاديث النبوية:

بهذه المناسبة أتجرأ لإبداء رأيي- ورأيي قاصر- في الأحاديث النبوية:

منع الرسول صلى الله عليه وسلم من كتابة أحاديثه الشريفة بقوله: «لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، ومن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه»[٧١] والحق أن الأحاديث التي لم تصدر منه صلى الله عليه وسلم على صورة خطبة أو موعظة- من الطبيعي أن تكون متعلقة بأبحاث جرت في ذلك الزمن. فلذا لا يجوز أخذ جملة من الكلام بدون علم ما قبلها وما بعدها، واعتبارها نصاً لقداسة قائلها، وقد يؤدي هذا إلى التناقض أحياناً؛ مثل قوله «كاد الفقر أن يكون كفراً» و «أستعيذ بالله من الفقر والعيلة» وبين قوله «الفقر شينٌ عند الناس، وزينٌ عند الله يوم القيامة»، فإن هذه الأحاديثَ ينقض بعضه بعضاً في الظاهر إذا وضع بجانب بعض. على أن كل واحد منها حكمة في موضعه. فكل حديث إذا اعتبر أمراً ونصاً يمكن أن يؤدي إلى مشاكل، ما عدا الأحاديث الصحيحة، التي اتخذها الأئمة العظام لتأييد

آرائهم، وتنوير مدَّعاهم. والأحاديث الشريفة أمثال «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»، و«إنما أنا بشر مثلكم، إن الظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم قال الله، فلن أكذب على الله»، و«أنتم أعلم بأمور دنياكم» فكلها إشارة إلى تلك النقطة الدقيقة، وأما ما تحويه من التواضع وإنكار الذات فحجة بالغة لعظمة شأن قائلها، وعمق نظره.

وبهذه المناسبة استمر في سرد بعض آراء عن الأحاديث الموضوعة. حفِظت عدداً كبيراً من العبارات العربية، باسم الأحاديث النبوية، سواء جرت عن لسان العظماء الذين فُزت بحضور مجالسهم منذ نعومة أظفاري أو من مطالعة كتب قيمة. ولما شرعت في تأليف هذا الكتاب، وقمت بالتمحيص والتحقيق، اتضح أن ما يقرب من نصف محفوظاتي أحاديث موضوعة. وإن كان بعضها جُملاً وجيزة مزينة مفيدة لفظاً ومعنى، وحاوية نصائح وعظة، إلا أن بعضها مُضِرة، وخليقة أن تقلب عقائدنا الإسلامية رأساً على عقب. فمنها «لولاك لولاك، لما خلقت الأفلاك» الذي ذُكر في بحث «ورسله» في الباب الأول، و«أول ما خلق الله نوري» و «أول ما خلق الله العقل» وأشباهها. بيد أن أعجب العجب، هو أن يقتبس شاعر عظيم كالشيخ غالب من هذه العبارات، الضعيف بعضها حقا، وبعضها مشكوك فيه وضعيف، فيقول «بما أن هذا النور أول ما خُلق فإني معذور لو سميته ثاني الله»، ثم يأتي أديب متبحر- وهو ضيا باشا- فيضمن منظومته في النعت الشريف هذا البيت. وهكذا تنشأ عقيدة تثليث مؤلف

من الله وثانيه والعقل الأول! ويبدو أنه لا مانع عند أدبائنا من الكفر والشرك إذا كان منظوماً! لأن هذه الأبيات تنشد في مجالس العلماء وتسمع بلذة وسرور.

ومما يستلزم الأسف أن يسمح بدوران هذه الأقوال الباطلة في أفواه الصغار والكبار وتأسيس عقائد مبنية عليها، بعد أن جمع أعلم علماء الإسلام- نورَّ الله مراقدهم إلى يوم الدين- الأحاديث الصحيحة، وألفوها، وبحثوا عن موضوعاتها، وأشهروها بين الناس وأشاعوها. وحديث الرسول «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» وأمثاله ماثل أمام الأعين!

رأيه في الشروح والحواشي:

وإذ أن المناسبة مُواتية أريد أن أبحث قليلاً في موضوع مهم كذلك. وهو أن الخلف اعتادوا شرح كثير من مؤلفات العلماء العظام وتفسيرها. وفي هذه الشروح يخترع ضروب من التأويل والتفسير للمتن، وتسند إليه معان مجازية. ويشاهد كثيراً إتعابُ الشراح أذهانهم بالبحث والتعقب عن معان باطنية، مع أن المتون صريحة معقولة، ومقاربة للذوق السليم. وفي إمكاني أن أذكر شروح كتاب المثنوي وديوان الحافظ الشيرازي مثالاً لذلك. إن الانهماك في التأويل قد يشمل آيات كثيرة في التفاسير وأحاديث كثيرة في الآثار. وبينما صار التفسير والتأويل وتوجيه المعاني المجازية عادة متبعة، فإن بعض العلماء على العكس من ذلك يصرون متعصبين على أخذ بعض الأحاديث بمعناه الظاهري، في حين أنه يدل

ذوقاً وحكمة، بل صراحة- على قصد قائله معناه المجازي. وهكذا يجعل العوام للأحوال الغيبية والأخروية أشكالاً وصوراً مادية مستقرة في المخيلة، ثم تبلغ هذه التصورات الشعبية ألسن خصوم الدين، فتصير وسيلة تستعمل ضد ديننا وسلاحاً. وليس في الإمكان التأليف بين الحكمة البعيدة الغور، والسماح الذي يحويه قول الرسول «لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن» وقوله «إنما أنا بشر، إن الظن يخطئ ويصيب» وأمثالهما وبين الألفاظ المضطربة التي يتفوه بها بعض المتعصبين من العلماء. وخلاصة القول أن من الأصوب لمن يريد قلب الأمور الدنيوية- ببعض التفسيرات والتأويلات- إلى أمور معنوية، ألا يصر على تشويش الأذهان بتصوير الأمور الأخروية في أشكال مادية دنيوية.

ثم إن تشويق بعض علمائنا أهل الإسلام للتجرد من عالم الحضارة، والاستغناء عنه، اقتفاءً لبعض الأقوال والتفسيرات الضعيفة، واتباعاً لما حُرِّم ديناً من العجب والغرور- قد استوجب أضراراً مادية ومعنوية في العصر الأخير. إذ استلزمت هذه العزلة المبنية على الغُرور حرماننا الرقي العصري ونُفرة عالم المدنية منا، وما مُنينا به من الانحطاط. على حين أن الآيتين: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل»، و«لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين» حافزتان على الاختلاط ضمناً وصراحة. كما أن الحديث «اطلبوا العلم ولو بالصين» وحسن معاملات الرسول مع النجاشي والمقوقس، وأعماله الحكيمة ومناقبه، والعلاقات

السياسية التي قام بها هرون الرشيد والمأمون من متقدمي خلفاء المسلمين مع الملوك المعاصرين لهما من النصاري والمجوس- تخالف ما اتخذه العلماء المتأخرون من مسلك التعظم والعزلة. ولو أن العداوة التي تعادينا بها النصرانية بتعصب ليست مما يمكن إخفاؤه، إلا أننا ينبغي أن نقول بحق الإنصاف: إنه لا يمكن إنكار أننا بأعمالنا السيئة نثير هذه الخصومة، وندعوها إلينا، ثم نكبرها في مخيلاتنا أكثر مما ينبغي. فثمة وقائع تاريخية كثيرة مؤيدة لقولي هذا. فاتفاق فرنسوا الأول ملك فرنسا، وشارك الثاني ملك السويد، وفريدريك الأكبر ملك بروسيا، ونابليون الأول، ودول أوروبا المختلفة مع الدولة العثمانية- على أبناء جنسها في حرب القِرم، ورغبتهم في الدفاع عنها، وبخاصة اتفاق الإنجليز مع اليابان في مستهل هذا القرن- يدل على أن هذا التعصب ليس شديداً كما يُظن.

إنا نشاهد شعوباً مشتتة، وحكومات غير نصرانية، قد استولت عليها الدول المتمدينة استيلاءً فعلياً، وأدخلتها تحت حمايتها السياسية أو الاقتصادية أو كلتيهما معاً، بيد أن حمل هذه الحال على تفوق الدول المتمدينة في الحضارة والحرب والاقتصاد تفوقاً غير مناسب مع تلك الشعوب الضعيفة، وطمعها في الاستفادة من ثمرة مساعيها وخيرات بلداتها- أصح من حملها على التعصب الديني. كانت اليابان قبل نحو نصف قرن مغلولة بأغلال الامتيازات الاقتصادية كالصين، حتى إذا ارتفع مستواها المدني والصناعي، ولا سيما صناعة الحديد- عدتها الدول المتمدينة معادلة لها، وأبدت رغبتها في عقد معاهدات معها.

وكان من واجبات علمائنا بذل أقصى مجهود وهمة في المحافظة على الأسس الاعتقادية والمعنوية، والأخلاق الإسلامية، بل حتى إظهار البطش والتجلد والعنف حين الضرورة، وليس لأحد اعتراض في هذا، بيد أن التعلق بالزي والعادات الموروثة من الأكاسرة والقياصرة إلى هذا الحد من التعصب، واعتبار معنى سام كالدين مربوطاً بزر طربوش مثلا (٧٢)، مع إبقاء المسلمين في جهالة وعزلة عن القسم الأعظم من العالم، وإيجاد مخاطر ومخاوف لجماعتنا- جدير بالنقد والمؤاخذة.

واهتمام علمائنا الكثير بالجسمانية وهيئة البشر في الأمور المعنوية، يستدعى الشبهات والاعتراضات [٧٣]، فلو توقفنا في كثير من العقائد عند دائرة النفسيات، لما وقع التعارض والتناقض في كل خطوة. إني لا أعرف كثيراً عن قوة الأدلة النقلية المسرودة للتمسك الشديد بالجسمانية المادية. ويجوز أن يورد عدم إمكان ظهور الروح دون تعلق بجسم كما في الضوء. ولكن ما الضرورة لأن يكون هذا الجسم كثيفاً ومادياً؟ وما دام يُعترف بوجود أجسام لطيفة، فلم ينكر تعلق الروح بجسم كتلك في عالم الآخرة واللاهوت [٧٤]؟! وعلى كل حال ليست هوية المرء- لو جاز التعبير- وأنيته هو جسمه المادي المتغير في كل لحظة [٧٥].

إن التأثيرات الواقعة على أعضاء البشر، تصل بواسطة الأعصاب إلى حجيرات الدماغ، فيحسها حساً فجائياً، فتحدث الملاحظة والبت. فمن يفعل هذا ومن يحس به؟! ثم إن الأعضاء والأعصاب والدماغ تظل على ماهي عليه عقب الموت الفجائي، ومع ذلك لا تبقى لها قابلية لأي نوع

من التأثر والتأثير والإحساس والشعور. فالهوية اللطيفة التي تحس باللذة والألم، وتبت في الأفعال، وتدفع الأعصاب إلى الحركة والتنفيذ، وتنظم الدورة الدموية، والفعالية الحيوية، والتي تنقطع عن التدبير والتصرف عقب الوفاة مباشرة- يقتضي أن تكون سراً من أسرار اللاهوت، وأمرا إلهياً (٧٦).

فحقيقة هذه الكيفية لم تُفهم فهماً يقينياً، ولن تفهم. وبيانات الحكماء المتقدمين وفروضهم في الروح، من قبيل الأقوال المجردة. وليس في هذا الباب دستور حكمة يطمئن العقل والوجدان أكثر من قوله تعالى: «قل الروح من أمر ربي». ولما كان ارتباط العلماء بالمسائل الدنيوية الجسمانية، واهتمامهم بها إلى درجة نسيان اللطائف الروحية، في المسائل اللاهوتية والأخروية- يسبب خدش الأذهان، وزيادة الاضطراب، وجب أن يصدر قرار في هذا الشأن بإجماع العلماء.

ومن أسباب المسئولية: غرور بعض علمائنا وتعصبهم الزائد، وتهورهم في أثناء المناقشات العلمية. فقد سمعت من كثيرين وشاهدت أحياناً أن بعض رجال العلم، حين يعجزون عن الإجابة عن أسئلة بريئة موجهة إليهم، لدفع الشك والشبهة، وتحصيل اليقين- ينهون الموضوع بالاستكبار، والامتناع عن المناقشة، مكفرين أصحاب السؤال. على حين تظهر كل يوم حقائق علمية بتطور العلوم، إن رأياً رُوِّج سهواً منذ نيف وألف عام، أي بعد وفاة الرسول بمئتين أو ثلاث مئة سنة، كنقطة نظر معترف بها، يجوز تصحيحه فيما بعد. ولن يؤدي هذا إلى تنقيص مجد

العلماء والمجتهدين السابقين. بيد أن التعنت في المحافظة على الآراء العتيقة، والدفاع عنها بـ «إنا وجدنا آباءنا»، مضر ضرراً بليغاً. إننا مع إيماننا بكرامة الأولياء، نعتقد بعدم وجود معصوم من الخطأ في الإسلام.

أخذ السلف من علماء المسلمين العلوم المدونة في عصرهم، من الهند ومصر واليونان، وتتبعوها، ثم مزجوها بالحقائق القرآنية، وأسسوا فلسفة إسلامية. لقد اكتسبوا ببذل مجهوداتهم الخالصة شكراً خالداً من أخلافهم. ولكن العلوم قد اتسعت منذ ذلك الوقت، فتبدلت موضوعاتها وتنوعت. فمن الطبيعي تغير بعض نظريات مبنية على معلومات ذلك الوقت العلمية. فإسناد قوة قدسية لكل صاحب تأليف، ورفعه إلى درجة العصمة من الخطأ- يكون قيداً للتقدم [٧٧].

ومن أجل ما استمر من انتشار أغلاط الاجتهاد والمعتقدات الباطلة، لم يكد يتم قليل من الاستئناس في بلادنا بمقدمات العلوم- حتى استقر الكفر والإنكار والإلحاد في الأذهان.

إن البابوية التي أرادت فيما مضى إحراق غاليلي بالنار حياً، لقوله بدوران الأرض، حين أدركت عجزها عن مقاومة سيل الترقيات الهائلة، طاوعت التيار، فأنشأت مرصداً بقصر الڤانكان، ولم يمض زمن وجيز حتى ظهر بين الرهبان رجال من أمثال «پرهاجن» و «الأب مورو» اللذين وضعا نظريات حول خلقة العالم. فقدرة عالم النصرانية على مزج النظريات الغريبة المزعجة كعقيدة التثليث، وقضية الثمرة الممنوعة، والقربان المقدس- إنما كانت بهذا التسامح.

وأما الدين المحمدي، مع أنه خال من عقائد وتكاليف مغايرة للعقل والحكمة، وفيه من الرفق والتسامح الكريمين مصداق قوله: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق»، فإن ما أظهره علماء المسلمين من العنف والخشونة والعصبية سبب ضلال كثير من الناس. فبالرغم من دلالة الأحاديث الشريفة على حرية الرأي والضمير، كقوله «استفت نفسك وإن أفتاك المفتون» ونحو «استفت قلبك وإن أفتوك» ونحو «ما أنكر قلبك فدعه»- فإن حمل الإصر الذي رزحت الأمة المحمدية تحته منذ عصور يدعو إلى التعجب والأسف. إن بذل ما يُستطاع من مجهود للدفاع عن العقائد الدينية، والأخلاق الإسلامية، والمحافظة عليها- حق طبيعي لعلماء الدين. ولكن لا ينبغي البلوغ بهذا الحق درجة لعن الناس وتكفيرهم لأتفه الأمور! فمثل تلك المعاملات هيأت فرصة لأحداث اليوم وانقلاباته. فلم لم يتبع علماؤنا أحكام الأحاديث كقوله: «عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش»، و«علموا ويسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت» وغيرها من الأحاديث؟! ولم لم يقتدوا بالسير والمناقب النبوية؟! ولم لم يتمثلوا الحلم والرفق والصبر الذي أظهره الرسول في إرشاد الأعراب والمعارضين والدهريين؟

وموجز الكلام أنه إذا كان من ترك دينه، ودفع إخوانه في الدين إلى الإلحاد والكفر- آثماً مجرماً ظالماً، فإن مسئولية من حرف أسس الدين، وشوه المسائل الاعتقادية، وشوش الأذهان، بإدخال خرافات وأساطير

باطلة في المعتقدات الدينية، من أصحاب العمائم ورؤساء الدين السامحين بهذا- بقدر مسئولية أولئك سواء بسواء.

كانت صيانة الدين والعقائد من التغالي في الأخطاء أقدم واجبات الخلافة والمشيخة الإسلامية والهيئة العلمية. بيد أني مضطر للاعتراف وقلبي يحترق من حزن أن مشيختنا وخلافتنا لم تبذلا جزءاً مما بذلت البابوية وسائر الهيئات النصرانية- في العصر الأخير خاصة- من مساع مبنية على الوقوف التام والعقل والتضحية، في نشر العيسوية وتعميمها وتحكيمها، مستندة إلى نظم مؤسسة خير تأسيس. وربما تكون الخلافة والمشيخة قد عملتا على اتجاه معاكس، جهلاً منهما!

[انتهى الاستطراد]

الاعتراضات الموجهة على القرآن:

أشد تعريضات خصوم المسلمين، موجه إلى عقيدة المسلمين بقدم القرآن. وهذا التغريض غلطة نجمت عن جهل حقيقة المسألة، وعن اعتبار المجادلات الكلامية صورية ولفظية ليس غير. إن كثيراً من الكتب التي ألفها الغربيون عن المسلمين تبين بكثير من التهكم أن المسلمين تسودهم عقيدة أن القرآن كان مع الخالق منذ الأزل، في صورة رسالة محفوظة، حتى إذا بُعث محمد أنزل عليه آيات متفرقة.

ومسألة خلق القرآن- التي ابتدعتها الجهمية وأيدتها المعتزلة، وقلبها المأمون والمعتصم من الخلفاء العباسيين إلى فجيعة- قد قيل فيها وكتب

أمور كثيرة غير مجدية، وغير ذات معنى، بيد أن القرآن كلام نفسي عند متكلمي أهل السنة؛ أي أنه قديم روحاً ومعنى. والألفاظ المركب منها الكلام تحوى معاني ومدلولات من محسوسات ومعقولات، فحقيقة الكلام ليست ألفاظاً، بل هي المعاني والمدلولات. وقد أطلق أهل السنة على معاني هذه الألفاظ ومدلولاتها كلاماً نفسياً، وأقروا بقدم هذا الكلام النفسي في القرآن الكريم. وكما أن وحدة الله وسرمديته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته ومشيئته وإرادته قائمة بنفسه، فلا يسع عاقلاً أن ينكر قدم ما يتضمنه كتاب مبلغ حقائق وإرادات إلهية.

بيد أن الجهمية أصلاً- والمعتزلة تبعاً لها- أنكرت صفات الله الثبوتية، وردت الكلام النفسي، وقالت بعدم الكلام سوى المركب من الأصوات والحروف، فحدثت بذلك بدون مناسبة مسألة خلق القرآن وحدوثه. أما أهل السنة الذين أدركوا مقاصد مضمرة من ورا هذه السفسطات الفارغة- فردوا هذه الدعوى، وقاوموا في اجتهادهم ببذل النفس اضطهادات المأمون والمعتصم الظالمة، وثبتوا في امتناعهم عن المجادلة في كلام الله. ومن هذا نجمت أساطير خصوم الإسلام، في مسألة قدم القرآن التي ذكرتها آنفاً.

ليست دعوى الجهمية والمعتزلة إلا سفسطة. فإن ألفاظ الكلام ما هي إلا شكل وواسطة للتفاهم بين البشر، ودليل لمزاولة الآراء، تتبدل عند كل قوم وفي كل مكان. فمدلول لفظة «الماء» مثلاً واحد في جميع اللغات والأماكن، ولكن يندر من يفهم هذا اللفظ في مدينة بكين. فلو صاح رجل

من الصباح إلى المساء «الماء، الماء» فلن يجد ما يروى ظمأه، على حين أنه يقدر على تفهيم مرامه بالإشارات والرموز. فحقيقة الكلام ليس شكله الظاهري بل معناه. لأن اللفظ متغير، وفي المعنى حقيقة ثابتة غيبية. وهذه الحقيقة المكنونة منقوشة على النفس والروح والفكر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جُعل اللسان على الفؤاد دليلاً

إذن فدعوى أن القرآن مخلوق، المبنية على إنكار الكلام النفسي، سفسطة خالصة.

ونظراً إلى عقيدة أهل السنة؛ الله متكلم، وصفة الكلام ثبوتية، فهي قديمة، بيد أنه يتكلم بلا حروف وألفاظ وأصوات. أي أن كلمات الله معان ومضامين وحقائق، فالقرآن قديم بهذا الاعتبار.

وبين الطاعنين في القرآن الكريم من يحاولون تنزيل قيمته- بأنه لا يحوي أموراً جديدة، إذ أنه يصدق الأديان المتقدمة، والصحف والكتب المقدسة. وكيفية التصديق هذه؛ أحد أدلة صحة القرآن وعظمته. فكل كتاب مقدس وكل دين إلهي إنما نزل لتلقين حقائق ثابتة غير متبدلة، إذن فكلها حق. ولكن أكثر الصحف والكتب المقدسة ضاع أو حرف لطول الأمد. والقرآن يبين تصحيح هذا التحريف. فهل ثمة حقيقة أعظم من هذه؟

ومن الاعتراضات الواهية كذلك كون سور القرآن باحثة في مواضيع مختلفة، وتكرار الآيات. فهل كان المعارضون يرغبون في أن يروا السور

القرآنية على صورة لوائح إصلاحية؟! ومعلوم أن القرآن نزل آية آية، ثم جمعها كتاب الوحي بإشارة من الرسول في سور، على حسب مناسباتها. والواقع أن المواضيع متنوعة في بعض السور، بيد أن وجود علاقة ورابطة منطقية بين الآيات متفق عليه، أما التكرار فتسميته بالتأكيد أصح من تسميته بالتكرار. وأما أنا فأعتقد أن تعليم وحدة الله وعظمته، وعلمه وحكمته، ورحمته وقدرته، وترغيب الناس في المعالي، وتحذيرهم المناهي، خليق بكل أنواع التكرار والتأييد، وهؤلاء المعارضون أنفسهم يصدقون احتواء عبارات القرآن على فصاحة وبلاغة معجزتين، إذن فهلا كان يقدر الرجل الذي أنشأ هذه الآيات العسيرة التقليد، على تجنب التكرار، وهو إحدى قواعد البلاغة البسيطة؟ وهذه الملاحظة أيضا تثبت أن القرآن لم يصدر من بين شفتي محمد باختياره، وإنما صدر بإيحاء غيبي.

ليس في إمكان كتاب بعيد عن القيود والقواعد الموضوعة أن يجتذب ويفتن ببلاغته الأصدقاء والأعداء، ويجعلهم حيارى مبهوتين، إلا إذا كان كتاباً سماوياً فوق طاقة البشر.

وللمنكرين اعتراضات أخرى على السور والآيات القرآنية. وهي موجهة خاصة إلى القصص الواردة في عبارات موجزة معجزة، عبرة للإنسان وبصيرة. ومن المعلوم أن الآيات كانت تنزل غالباً بحسب المناسبات. وكذلك هذه القصص تكررت لحكمة التذكير والإنذار، استدلالاً بالوقائع التي كنت معروفة لديهم، والتي قد أخذت من التوراة،

ورداً على التلقينات الضارة التي قام بها يهود جزيرة العرب في أزمان مختلفة، فلذا يجب التنبيه إلى الغاية المقصودة بالتكرار، أكثر من العناية بالبحث والتحقيق في تكرار الوقائع التي قُصت رمزاً في السور والآيات القرآنية[٧٨].

ثم إن بعض المفسرين حين يفسرون آيات التذكير، يأتون ببعض ما ذُكر في التوراة عن خلقة العالم من معتقدات الكلدانيين، وهي أهم أدلة الحكماء المنكرين للأديان المنزلة. كانت التوراة الحقيقية قد ضاعت في أثناء استيلاء بختنصر على القدس. والكتاب المؤلف باسم التوارة بعد جلاء بابل محتمل جدا أن يكون مؤلفاً على العقيدة الكلدانية. بيد أن التفاسير التي لا تتفق مع نص القرآن، لا يصح عدها من العقائد الإسلامية.

ثم إن من أهداف الاعتراضات: بعض كلمات القرآن التي لا يمكن تفسيرها بحق. بيد أن تكشف معانيها يجب انتظاره بصبر. فمثلا لم يكن من المستطاع تفسير «والشمس تجرى لمستقر لها» و «كل في فلك يسبحون» تفسيراً حقاً حين كان فلك بطلميوس يظن في نظر العلماء حقيقة. فقد ظهرت الآن معانيها حقيقة ساطعة، ومعجزة قاطعة.

وينبغي ألا يَعزب عن النظر في هذا المبحث أن مدلولات بعض الكلمات والتراكيب لا تزال غير معلومة، وغير ثابتة ثبوتاً قاطعاً حتى اليوم. فما المقصد من سماء الدنيا؟ أهي الكرة النسيمية [٧٩]؟ أم هي شبه كرة متصورة الحدوث من مدار الأرض حول محورها؟ أم المجموعة

الشمسية التي تدخلها الأرض كذلك؟ أم المجرة التي تنتمي إليها الشمس أيضاً؟ أم المجرات المختلفة التي لا ريب في حسبانها من السموات السبع؟ ما الفرق بين الأفلاك والسموات، وبين المصباح والنجوم والكواكب؟ وما مقدار زمن يوم الخلقة؟ لقد استعملت كلمة «يوم» مصطلحاً لعهد تاريخي؛ فتركيب «أيام العرب» يدور في الألسن على هذا المعنى.

فإذا فُكر علمياً فمعنى اليوم دور بالقياس على الأرض. لقد ثبت اليوم بآلة التصوير خمسمائة مليون من الثوابت على صفحة السماء. ويقدر عدد نجوم المجرة بمليار وخمسمائة مليون نجم. ومدد أدوارها وأيامها مختلفة. فليس ثمة سبب لقياس مقدار ملك الخليقة بمقياس الأرض ومساحتها. فيوم الخلقة على هذا أهو دور من أدوار المجرات التي تدور مليارات السنين؟ أم لحظة غير منقسمة لدورة ذرة من ذرات إيدروجين الكهيربية حول البروتون؟ ولا فرق بين هذين الزمنين بالنسبة إلى الأبدية. أما قياس أيام الخلقة بأيام أسبوعنا، وترك أحدها لاستراحة الخالق- حاشا لله- فمضحك، وقد يبلغ درجة الكفر في الدين المحمدي، قال تعالى «وما مسنا من لغوب» و«ولا تأخذه سنة ولا نوم»، وهكذا لا يفهم معنى كثير من الآيات الكريمة دون تعين مثل هذه المدلولات. فعلى أرباب العقل والإنصاف المؤمنين بالله أن يؤمنوا بأحكام الآيات المحكمات ويتبعوها امتثالاً لقوله المنيف: «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات» وينتظروا صابرين ما لم يمكن تفسيره

إلى الآن من المتشابهات، حتى يفسرها بإذن الله العلماء الراسخون، أو تنورها الاكتشافات الجديدة، مصداقاً لقوله تعالى: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم».

قياساً[٨٠] على ظهور الحقائق الفرقانية مع الترقيات العلمية الأخيرة، واعتراف عالم المدنية ببعض الأحكام الإسلامية، يُحكم بأن حقائق هذه الآيات سوف تتكشف واحدة واحدة مع مرور الزمان، ويتجدد إعجاز القرآن مستمراً ما دامت القرون «كل يوم هو في شأن [٨١]».

آراء علماء الغرب في القرآن:

أنقل هنا مقتطفات من أقوال علماء الغرب الواردة في كتاب «ما هو القرآن؟» لعمر رضا بك، ملاحظا أن تأييد الدفاع عن القرآن بأقوال حكماء سائر الأديان- يكون أشد تأثيراً في إقناع المعارضين وإفحامهم:

قال إدوار جيبون من مشاهير مؤرخي الإنجليز: «إن موحداً ذا دماغ مفكر لن يتردد في الاعتراف بنقط نظر الإسلام. فقد يكون الإسلام ديناً أعلى من تطورنا الفكري اليوم».

قال المستشرق كارلايل وهو من أساتذة جامعة كمبريج: «إن علوية القرآن في حقيقته العالمية، فهو حافل بالعدل والإخلاص. والدعوة التي بلغها محمد إلى العالم- حق وحقيقة».

من ستنفاس مؤلف قاموس عربي إنجليزي: «القرآن واحد من أهم الكتب التي انتقلت إلى الناس ليفيدوا منها. فهو سجل جامع لأسس الأخلاق والعقائد الكفيلة للناس بالتوفيق والهداية في حياتهم».

أماديود أوكهارت وهو مؤلف كتاب عنوانه «روح الشرق» فيقول: «الإسلام يقدم براءة النجاة للتابعين، وسجل أخلاق للمتبوعين، ويؤيدهما بالدين».

من محاضرة عن الإسلام ألقاها مانويل كنج- من أفاضل علماء الإنجليز، سنة ١٩١٥ في كنيسة البرسبتان- قال: «إذا كان في عالم الإلهام أمر يُدعى وحياً، وكان للوحي وجود كامل- فلن يُشك في أن القرآن كتاب منزل».

من عدد ١٣ أبريل سنة ١٩٢٢ لجريدة نيرإيست: «القرآن كتاب معجز، وخليق بالإعجاب من حيث التنزيل والترتيب. مع أن لسان القرآن مخالف للساننا، وآراءه تخالف آراءنا، فإن إنكار قدره وقيمته وفضله وجماله من جهات كثيرة يكون حرماناً من العقل والمنطق».

قال سديو المستشرق في كتابه تاريخ بلاد العرب: «القرآن جامع لكل أسس الأخلاق والفلسفة. فالفضيلة والرذيلة، والخير والشر، وماهية الأشياء الحقيقية، كلها مبينة في القرآن. فقد أوحيت آياته إلى محمد (صلعم) بحسب احتياجات الزمان، وحوادث العهد».

من كتاب حياة محمد للفيلسوف الفرنسي آلكسي لوازون «خلّف محمد للعالم كتاباً هو آية البلاغة، وسجل الأخلاق، وكتاب مقدس. وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً أو المكتشفات الحديثة- مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية. فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية، مع ما نبذله من المساعي للتأليف بين النصرانية وبين القوانين الطبيعية».

قال الكاتب الأمريكي واشنغطن إيروينج: «يحوي القرآن أسمى الآراء وأفيدها وأكثرها إخلاصاً».

وعن المستشرق والفيلسوف الألماني يوحان، يعقوب رايس (توفى سنة ١٧٧٤): «ما إن يتعلم بعض الناس قليلاً من اللغة العربية حتى يقوموا بمحاولة الاستهزاء بالقرآن. ولو استمعوا إلى قدرة القرآن المثيرة، الفصيحة المؤثرة، وأحسوا باللسان المحير للألباب، الذي استخدمه الرسول حين أفهم القرآن أصحابه، لوقعوا في الحضرة الإلهية ساجدين صائحين: يا رسول الله! أغثنا ولا تحرمنا من شرف الدخول في أمتك!».

تلكم نماذج من آراء علماء الغرب المدققين المحايدين في القرآن.

ليس الإسلام مانعاً للرقي:

ومن الطعون الموجهة إلى الدين المحمدي- أنه مانع للرقي والتقدم. ومثل هذا الطعن جد غريب، لوجود أوامر إلهية، وسنن نبوية، مرغبة في السعي والجهاد، مانعة من العطل والكسل، وحاثة على تحصيل العلم،

واكتساب الثروة المشروعة، ومؤثرة للأغنياء الشاكرين، على الفقراء الصابرين، كقوله تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة»، وقوله: «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون»، وقوله «ولا تنس نصيبك من الدنيا»؛ وكقوله صلى الله عليه وسلم: «الحكمة ضالة المؤمن أخذها حيث وجدها»، وقوله «اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، وقوله «العلم للعامة، والعبادة للرجل وحده». وقوله «واحرث لدينك كأنك تعيش أبدا»، وغيرها.

يريد المعارضون اتخاذ بعض الزوايا والتكايا أمثلة للكسل. وإذا كان منها ما يدفع إلى الكسل كما يقولون، فإن حالتها هذه إنما نشأت من طروء الفساد على نظامها القديم بمرور الزمن، ومن إهمال الخلافة والدوائر الخاصة بها وظيفة التفتيش والمراقبة. لقد كانت حكمة وضعها وإنشائها أن تكون دوراً للخير، وموئلاً مؤقتاً لأبناء السبيل، ودوراً للإرشاد الديني. ليس الإسلام يمنع العطل والبطالة حسب، بل يأمر الأمة بالوقاية من الفقر أيضاً. فقوله عليه السلام «كاد الفقر أن يكون كفراً» و«أستعيذ بالله من الفقر والعيلة، ومن أن تَظلموا أو تُظلموا» دليل واضح على ذلك. والواقع أن الإسلام- كجميع الأديان- يأمر بالتفكر في الآخرة، بيد أن هذا الأمر لا يعني إهمال الدنيا، بل يتبادر من النصوص القرآنية الكثيرة والأحاديث النبوية صراحة- أن غايات الدين هي ضمان حسن المعاشرة، وأمن الناس وسعادتهم، وسطوة الأمة وقوتها: «خيركم من لم يترك آخرته لدنيا، ولا دنياه لآخرته، ولم يكن كَلًّا على الناس» صدق رسول الله.

أين الدليل الذي استخرجه المخالفون من القواعد والقوانين الإسلامية لإثبات دعواهم؟! إن المساوئ الناجمة من عدم تطبيق قانون، أو سوء تعديله فيما بعد- لا يجوز حملها على القانون نفسه.

تأسيس الأسرة في الإسلام:

النصوص والقوانين الإسلامية صريحة ثابتة في أمور تأسيس الأسرة والوراثة، والمحافظة على النسل والذرية، وضمان العفة التي يترتب عليها حفظ النسل. وليس للمعترضين حق في اعتراضاتهم على الإسلام لإباحته الطلاق وتعدد الزوجات، زاعمين أنهما من موانع تأسيس أسرة سعيدة؛ فالأصل في الإسلام وحدة الزوجة، وتعدد الزوجات ليس مأموراً به، بل أمر مأذون به، ولا مساغ له إلا في حالة الضرورة. لقد نشأ الدين المحمدي عند قوم لا يأبهون كثيراً لأمر الزواج، وكان الزمان يوجب نقص الذكور عن الإناث، بسبب الغارات والغزوات، وقد دفع التفاوت العظيم بين الذكور والإناث أكابر العرب إلى وأد بناتهم، وتقديمهن قرباناً للآلهة غداة ولادتهن، زاعمين أنهم يحفظون بذلك عرض الأسرة وشرفها، فجاءت الشريعة المحمدية، وقيد النكاح بقانون، وحدد عدد الزوجات، وعين في الوقت نفسه جداً متوسطاً يمنع نقص الذكور، ويحفظ عدداً كبيراً من النساء من الفساد. ثم إن القواعد والشروط الشرعية الموضوعة في شأن تعدد الزوجات، لو روعيت رعاية حقاً، لكان وقوعه- ولو ممكناً- عسيراً ونادراً في عصرنا هذا.

أما الطلاق فهو وسيلة محضة للخلاص، إذا استعمل في حدود قواعده الشرعية، فليس من العدل في شيء أن تحمل أمة برمتها حالة ضرورة ناشئة من عدم الألفة والامتزاج، تقاسيها أسرة مدى الحياة من سوء العشرة، أو قلة العفة. إن اعتراف عالم المدنية- بلا استثناء تقريباً- بالطلاق والعمل به بعد ثلاثة عشر قرناً يؤيد كون الشريعة الإسلامية حقاً وحكمة. ومع ذلك فمهما هو خليق بالذكر أن الإسلام وإن كان مسوغاً للطلاق حين الضرورة، إلا أنه يستقبحه، حيث يقول الرسول: «أبغضُ الحلال إلى الله الطلاق». وهناك أحاديث تخبر بأن الطلاق يُحزن حتى الملائكة. ما جاء دين كالإسلام، ولا بُعث نبي كمحمد، وضع أحكاماً صريحة لحماية حقوق المرأة. وقواعد المسيحية في الزواج وتحديده إنما وضعت فيما بعد. والإسلام كما أنه في كثير من الآيات والأحاديث النبوية أمر بحقوق المرأة، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصى برعاية حقوق المرأة خاصة في خطبته بحجة الوداع [٨٢].

الإسلام لا يروج الرق:

لقد افترى الأوروبيون على الإسلام بأنه مروج للرق والأسر حينما شرعوا في السعي لمنع الرق. على حين أن لمحمد أحاديث كثيرة مبينة ثواب عتق الرقيق، ومن وصاياه في خطبة حجة الوداع معاملة الرقيق في طعامه وكسوته كمعاملة الأحرار. وكان يعتق كل رقيق ينتقل إليه بسبب من الأسباب. وإذا رأى في أحدهم أصالة في الرأي والروية، رفعه إلى أسمى المقامات الإدارية والعسكرية. ومن أولئك الأرقاء المعتقين زيدُ بن

حارثة، وسلمان الفارسي. بلغ مسامع حارثة- وهو من علية قبيلة بني كلب- وجود ابنه زيد بمكة، فحضر إليها، لافتدائه بالمال المعتاد في مثل هذه الحال. ولكن زيداً ءاثر قرب محمد وخدمته، على عطف أبيه وشفقته. ولم يكن محمد قد أعلن رسالته بعد؛ فإن نظريات الرسول في شأن الأسر ومعاملته للأسرى كانت رحيمة أولاً وآخراً. بيد أن عرفاً وعادة جارية في كل العالم، وأمراً معدوداً من اللوازم الاجتماعية في ذلك الزمن- لم يكن في الإمكان تغييره وهدمه بالنص في صورة حاسمة. فالمسيحية نفسها لم تقدر على إلغاء الرق، حتى زمن قريب جداً. ومنذ ستين أو سبعين عاماً شبت في هذا الشأن حروب عظيمة بأمريكا، كلفت إراقة دماء مئات الألوف من الناس.

ومع ذلك فقد فتح رسولنا طريقاً إلى هذه الغاية الإنسانية، بما أجرى من الوصايا، وابرز من أمثلة [٨٣]. وإذا كان بعض المتوحشين أحيوا عادة خطف الأرقاء والأسرى بعد قرون عديدة منه، فالمسئولية ليست واقعة على الدين الإسلامي، ولا علي محمد.

نظام الحكم في الإسلام:

كان نظام الحكم في القرن الأول مقترناً بالحرية والمساواة والعدالة. ومن المشهور أن علياً كان في خصومة مع رجل يهودي، فنادى القاضي علياً بكنيته احتراماً له، والذمي باسمه، فتأثر علي من ذلك؛ وعده منافياً للمساواة!

كان الخليفة- أي رئيس الحكومة- يُنتخب من قبل عظماء الأمة على قيد الحياة، توفيقاً لشروطها المعينة. والتشاور في أمر الإدارة والحكم مفروض ومسنون في الإسلام. وكانت القرارات المهمة التي تخص الجمهور تُتخذ في القرن الأول باستشارة أكابر الأمة. وكان إلغاء معاوية بن أبي سفيان هذا النظام خطأ كبيراً. فقد ضحى بنظام حكم تبحث عنه البشرية إلى اليوم بإراقة الدماء فلا تجده، في سبيل مطامع الأمويين في الحكم والسيطرة. إن القلاقل والاضطرابات التي بدت في الحكم منذ أواسط حكم عثمان- بدون علمه بالطبع- من التعامي إنكار كونها ذات وجهين؛ أي أنها حدثت حسب خطط نظمها الأمويون من جهة، والمنافقون من جهة أخرى.

وأما تحميل الشريعة الغراء مسئولية المظالم والاضطرابات التي أحدثها الملوك من ذوي الأطماع فيما بعد فلا يتفق مع المنطق والإنصاف. فلنلاحظ العدل والمساواة اللذين سادا أيام خلافة الشيخين المكرمين. فأما عمر فقد حُكي أن عربياً سل سيفه مهدداً في المسجد على الملأ بأنه يقومه به إن ظلم. فلما بلغ الخبر عمر دعا الله أن يكثر من أمثاله من أرباب الشجاعة والجلد. فلينظر إلى هذا، ثم إلى رفقه وشفقته لدرجة حمل طعام الأيتام والعجزة على ظهره، وهو خليفة! كما وصفه الشاعر الحلو اللسان محمد عاكف: وعزمه وقدرته ورويته المحيرة للألباب. ثم يطول اللسان في الشريعة المطهرة بالتشنيع!

والتعريض بأن مثل هذا الحكم وإن كان كافياً لأقوام بدائيين، ليس بكاف لسد حاجات المدنية الحالية خطأ محض. فقد تكونت في خلافة عمر دولة إسلامية عظيمة في الإمبراطورية الإيرانية؛ التي كانت مؤلفة من شعب ذي مدنية قديمة، والولايات الكائنة بسورية وأفريقية الشمالية للإمبراطورية الرومانية، التي لا تزال قوانينها مقتدى بها في أوربا. فقبول تلك الأمم البالغة أوج المدنية في زمانها الديانة الإسلامية بهذه السرعة والسهولة- إنما كان بتأثير الشرع الشريف، ومعدلة الحكومة المتمسكة به وحكمتها أكثر من تأثير سطوة السيف العربي. ومع ذلك فليس في الشريعة الإسلامية ما يمنع من وضع قوانين ولوائح كفيلة للاحتياجات المدنية المتزايدة، على شرط عدم الانحراف عن القوانين الأساسية حسب، بل قد أوصى الشارع بذلك حيث قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها». وهذه إشارة إلى لزوم التجديد بحسب الحاجات العصرية، وتصويب، بل أمر بذلك.

مسألة الربا:

بيد أن بعض الأحكام الشرعية والمعاملات التي يجيزها المتأخرون- باسم التأويل الشرعي، أو الحيلة الشرعية- فيها مساغ للكلام والمناقشة. فالمصارف (البنوك) المؤسسة على معاملة الإقراض والاستقراض بالربا، وصناديق التوفير والتأمين وغيرها- كلها من العوامل المهمة للمدنية الحاضرة. ولما كان الربا حراماً شرعاً فقد يُلجأ إلى حيل شرعية لاستحلاله، حتى إن القائمين على أموال الأيتام يحتالون للتخلص من

حرمة الربا بأصول غريبة، كنقل الأموال من يد إلى يد بالإيجاب والقبول. وفي رأيي أن مثل هذه الأفكار والأحكام الغريبة- إنما هي لعب بالألفاظ[٨٤]. ولو بُحث المراد والغاية والأسباب الغائية التي في النصوص والأوامر، ونفذت الأحكام الفقهية بمقتضاها، لما بقى محل لمعاملات وقرارات غريبة كالتي رأيناها. لا شك في أن الأرباح الفاحشة، لاسيما المركب منها، كالذي ورد ذكره في القرآن من الربا المركب، الذي يبلغ أضعافاً مضاعفة للدين- يمكن أن يؤدي إلى غبن المدين، وضياع كثير من الثروات. وهذه الحال مُضِرَّة بالمجتمع، كما أنها مضرة بأصحابها[٨٥]. فالأوامر الدينية الرامية إلى تخليص الناس من المرابين المحتكرين الظالمين- حكمة محضة. ولكن هذا يقتضي من جهة أخرى انتفاع امرئ بإيجار ما له من عقار وأملاك وضياع، وحرمان آخر من الانتفاع بما له من نقود. وفي إمكان الحكومات أن تضمن للمقرض ربحاً تدره عليه المبالغ المستقرضة، قياساً على الأجور وغيرها، وتعين مقدار هذا الربح، وتعتبر الأرباح الزائدة عليه ربا، وتمنعها. فبهذا يمكن منع إخفاء الذهب تحت التراب، بعد أن استخرج منه ببذل مجهودات وأموال ضخمة، وإنقاذ الثروة القومية من الضياع بعدم الاستخدام. وأما عدم حل المسألة حلاً معقولاً، والتوسل بمعاملات غريبة، كالتي ذكرناها، فيدعو بحق إلى الاعتراضات [٨٦].

ومسألة الربا هذه ليست مسألة هينة، بل هي أمر قد فتح منذ قديم باباً لمناقشات اختلافات متناسبة مع أهميته الاجتماعية. ولما كان مقصدي

من ذكرها الإتيان بمثال مأخوذ من المسائل الاجتماعية المهمة، الدائرة حول الغرائب التي دفعت إليها فكرة الحيلة الشرعية- فإني أتجاشى التعرض للمسألة الأصلية، مكتفياً بهذا القدر.

لا يُسلِّم المنكرون بفوائد الأديان في شئون التهذيب الأخلاقي. قال ن. سيمون في كتابه الذي ذكرته سابقاً: إن ما ألفه سقراط وأفلاطون وشيشرون من الكتب- ليس أقل من القواعد الأخلاقية التي وضعتها الأديان. وآتى ببعض أمثلة منها. وموضع السؤال هنا: تُرى هل وضع هؤلاء الشخصيات ما وضعوا من القواعد الخلقية من تلقاء أنفسهم؟! أو هي قواعد دينية عتيقة انتقلت في أزمان مجهولة من الآباء إلى الأبناء، وإلى الأحفاد، ثم سقطت عن العمل رويداً رويداً، وبقيت محفوظة في الأذهان والأقوال، حتى جمعوها في كتب؟! لا جرم أن سقراط وأفلاطون كانا موحدين مؤمنين بالربوبية. وأما شيشرون فقد كان رجلاً- مع أنه ألف كتابا في الأخلاق- يتلذذ بمشاهدة مصارعة الأسرى المساكين بعضهم مع بعض، أو مع بعض الحيوانات المفترسة، وسماع أناتهم وهم يحتضرون نتيجة لتلك المصارعة. أورد نابليون الثالث في كتابه «مغامرات شيزار (قيصر)» أن شيشرون ذكر في رسائله أنه كان يتأثر بصياح الفيلة المجروحة في أثناء مصارعتها في الملاعب العظيمة، التي أنشأها كراسيوس وپومپه وشيزار من عظماء روما، ولكنه لم يذكر تأثره أو حزنه من أنين الأسرى! فمن المستحيل المقارنة بين مدرس أخلاق كمثله وبين الأنبياء العظام!

يتصور بعضهم إمكان تقويم الخلق وتصفية النفس بقوة القانون. فلنترك عدم ثبوت هذه الدعوى بالحوادث والمشاهدات إلى جانب، ولكن مما لا ريب فيه أن الحاجة ماسة لتربية النفوس للوقوف أمام بعض سيئات خفية، ليس في استطاعة القانون والشرطة النفوذ فيها- وهي سيئات تفسد الشباب والجهال في البنية الاجتماعية.

ويبلغ ببعضهم الكرم لحد عدم استحسان الاتقاء عن المنهيات، خشية عذاب يوم القيامة ولزوم ذلك بتحلى الناس بالأخلاق الفاضلة والوجدان. إني أحيل إلى الرأي العام تقدير مبلغ تصديق أعمال أغلب هؤلاء لأقوالهم. والحق أن عظماء من الواقفين على أسرار «لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون» قد حصروا أفكارهم وأعمالهم في الله بلا خشية عذاب الآخرة، ولا أمل الجزاء، أو فَنُوا في الله بتعبيره الديني. بيد أن أولى درج هذا الطريق- التصديقُ بالله والإيمان بالدين.

خُلِق الإنسان مجبولاً على الحصول على قوته من محيطه. فلو لم تلطف هذه الجبلة وهذه الضرورة ببعض معتقدات ومعنويات، لزادت الخشونة والقسوة زيادة متصلة، وفسد نظام العالم.

إن معظم الحكماء والرؤساء- عدا الأنبياء العظام- من واضعي القوانين المهذبة للأخلاق، كانوا يؤمنون بما فوق الطبيعة، أي يقرون بقوى وأحوال غيبية. أما نظريات من لا يؤمنون بها وفلسفتهم فتوصى دائماً بالأنانية والغرور. فقد فُسِّرت نظريةُ تنازع البقاء، وبقاء الأصلح- تفسيراً أنانياً، وثبتت في صورة «الحكم لمن غلب».

بناءً على ما ورد من النظريات في كتب نيتشه، التي قلبت عقل شبابنا رأساً على عقب- ينبغي للإنسان أن يحصل على منافعه بقوة عزمه، ضارباً بالقيم الخلقية عرض الحائط، وأن يعيش لنفسه دون تفكير في غيره، وأن يكون أثراً متجرداً من الإحساسات والشعور الرقيق الخاص بالضعاف، ويستخدم الضعاف في آماله الخاصة، وأن يقهر كل أحد وكل مانع يحول بينه وبين تلك الآمال. وبهذا يكون المرء إنساناً عالياً [٨٧] (Ueber mensch-Superhomme)

إن هذه الفلسفة التي حلت بالجيل الجديد بألمانيا، والتي يحتمل أن تكون هي الدافع بذلك الشعب العظيم وتلك الدولة العظمى إلى المصائب والهلاك قد بدت تأثيراتها كلها في أفعال شبابنا أيضاً. ونظرية كتلك، برغم جميع وعودها، ترويج لنصر غرور الأقلية وأثرتها على الأكثرية. في حين أن البشرية عصت على هذه الحال دائماً، ومن أجلها كان معظم الثورات والاضطرابات التي بدت فيها. فهي ليست فلسفة، وإنما هي تصوير غريزة مرتكزة في الفطرة البشرية بلسان الفلسفة. وقد جاءت القوانين الوضعية والمنزلة كلها لمنع المساوئ والتخريبات، التي يمكن أن تنبعث من شدة تجلي تلك الغريزة. إن هذه النظرية المحركة للطمع والحرص، والزائدة فيهما، ينفرد بها بضعة أشخاص، ويبتلع بعض الماليين ثروات العالم كله ليستأثروا بكثيرين من الناس، ويستخدموهم ألعوبة في سبيل ملاذهم وشهواتهم. ولكن الحسد والانفعال اللذين ينجمان عن هذه النظرية يدفعان إلى ظهور الشيوعية أيضاً، فتصير الدنيا حينئذ في اضطراب وقلق. فالوقوف أمام مثل تلك المصائب، وإنقاذ

البشرية من الانحطاط- إنما يكون بوضع حد، وإقامة سد أمام تلك النظريات، بقوة دينية تلقي الرقة في قلوب البشر.

إن العهد الأخير الذي أيقظت فيه الحرب العالمية (الأولى) كثيراً من انفعالات وأغراض وأطماع من جهة، واكتشفت التطورات العلمية وسائل تخريبية، يمكن بها تخريب مملكة، وإهلاك أمة برمتها في لحظة واحدة، من جهة أخرى ففي إمكان نظرية أخلاقية كالتي ذكرناها أن تدفع البشرية إلى الانقراض والهلاك. ولذا فالبشرية في عصرنا هذا أحوجُ إلى الإيمان بالآخرة والتقوى من العقاب المعنوي منها في الزمن القديم. فيجب على النشأ الجديد أن يتحلى بالعقائد الدينية، والقواعد الأخلاقية المتعارفة من القديم، وأن يفتح صدره رحباً لإحساسات الرقة والرحمة، وإلا فالعاقبة وخيمة. ولا ينبغي أن يظن أن القوى يقهر الضعيف، والعالم يقهر الجاهل، فتتم الموازنة بتحكم الغالب وسعادته، وتنحل المشكلة. وإذا لم يلطف الهياج العصبي الناشئ من المنازعات برقة دينية، استلزمت هذه المنازعات زيادة الخصومات والانفعالات زيادة مستمرة، حتى تنقلب المدنيةُ إلى البداوة، والبشريةُ إلى البهيمية.

وهذه الحقيقة أُدركت في عالم المدنية، وأخذ الناس يسلمون بضرورة دين مستند إلى التصديق بالله والتوحيد. ولكن هيهات! في أثناء ذلك يظهر الإلحاد في بلاد التوحيد، «سبحانك يا محول الأحوال»!

القرآن لا يروج الحرب:

ومن أهم الاعتراضات والمفتريات الواهية على القرآن، قولهم بأنه روج الحرب والضرب، ونشر مبادئه وعممها بقوة السلاح، هذا في حين ظل المسلمون ثلاثة عشر عاماً من الثلاثة والعشرين عاماً التي ثابر فيها محمد علي نشر دعوته بمكة- غير قادرين على دفع الأذى عن أنفسهم. وأما الغزوات التي وقعت بعد الهجرة، فبعضها دفاعية محضة (كغزوتي أحد والخندق) وبعضها دفاعية هجومية (كغزوات بدر وخيبر وحُنين). وأما فتح مكة فتسميته بالعفو والصلح أولى من تسميته بالحرب. وأما من جهة انتشار الإسلام في جزيرة العرب، فكانت رغبة محمد في فتح مكة، وهي أقدس مدينة بتلك الجزيرة، ومسقط رأسه، وموطن أسرته منذ ألوف السنين، رغبة طبيعية جداً. ومع ذلك لم يحدث فيه قتال. بل بالعكس من ذلك، لم يكد محمد يدخل مكة حتى أعلن العفو عن كل من أهدر دمه، لما لحقه منه من أذى أو إهانة للإسلام إذا أسلم، وفيهم من قتل عمه، ولاك فلذة من كبده، ومنهم من شج رأسه، اعتدى عليه بالضرب، وبسط جناح الرحمة عليهم جميعاً، ويمكن أن يقال إن محمداً ما اكتفى بتنفيذ ما تضمنت شريعة عيسى مراسم العفو والرحمة قولاً، وإنما أيدها وطبقها فعلاً.

كانت المعاملة التي عوملت بها قبيلة بني قريظة اليهودية شديدة قاسية، بيد أن هذه القبيلة التي سببت بتلونها ونفاقها مشاكل ومشاق كثيرة للمسلمين، نصبت بعد قتال الأحزاب سعد بن معاذ الأنصاري حكماً، ليصدر حكمه فيهم، فأصدر عليهم حكماً حسب أوامر التوارة، ونفذ [٨٨].

أما القبائل اليهودية التي دخلت في حماية محمد بلا واسطة، فعاملها بالرفق والشفقة دائماً.

أما الحروب الشمالية التي بدأت في أخريات حياة محمد، واستمرت في عهد الشيخين، فقد نشأت من إهانة وقتل رجال البعثة السلمية، التي بعثها الرسول إلى كسرى إيران، وأمراء الغسانيين، الذين هم عرب جنساً، ونصارى ديناً، ورومانيون حكماً. ثم تكررت هذه الحروب فيما بعد لقيام الغساسنة والمناذرة (وكان هؤلاء من أتباع الفرس) بحركات غير مرضية، على حدود سورية والعراق، واشتدت حتى جرت إلى حروب فتوح معلومة.

وحروب الاستيلاء والاستعلاء التي وقعت بعد وفاة النبي، في عهد الشيخين لم تنشأ من التعاليم الدينية. إنها وإن جاز عدها نتيجة القوة والسلطان الذي زود به الدين العرب، إلا أنها تولدت في أصلها من أسباب سياسية. ومع ذلك فقد كانت تلك الأحداث نتائج مقدرة لذلك العصر، وذلك المحيط وتلك الأقوام. إن قدرة شرذمة مقاتلي العرب على هز دولتي الفرس والرومان، العظيمتين المتمدينتين باضمحلال إحداهما، وانقراض الأخرى انقراضاً تاماً- لهو برهان ساطع على صدق الديانة الإسلامية وحقيتها. وإن لم يُحمل انتصار المسلمين على المعجزة، مع توافر العدد والعُدد والمهارة الحربية وغيرها من وسائل النصر وشروطه في جهة الخصم- فعلى أي شيء يمكن إسناده سوى التأثير المعنوي لرفق المسلمين وعدلهم في قلوب الناس؟! ولا يجوز تشبيه توسع المسلمين

واستيلائهم على البلاد، بما قام به البرابرة الذين ضاقت بهم أرضهم من غارات مدوخة للأمم المتمدينة، والبلاد المعمورة، فانتصروا بالطغيان وكثرة العدد.

والحق أن في القرآن آيات كثيرة تأمر بالاستعداد للحرب. وتحريض الناس على الرجولة، وتحذيرهم الجبن والكسل- حكمة بالغة. وليس يمكن تصور رجل سياسي أو فرد عاقل ينكر اليوم هذه الحقيقة. بيد أن ثمة آيات كثيرة مانعة عن الحرب دون سبب كقوله تعالى: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين» سورة الروم. وقوله: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين» سورة الممتحنة.

يعتقد المنكرون الأديان إطلاقاً أنها كانت سبباً لسفك الدماء. بيد أن الإنسان إذا تعمق في البحث، تبين له أن جميع المنازعات والحروب نشأت من تعارض حقوق الناس ومنافعهم بعضها ببعض؛ أي من عدم إتباع الأوامر الدينية، وقد تولد أكثر هذه الاختلافات منذ القدم، من العجز عن تقسيم الغواني والمصايد والمراعي والمزارع، أو الثروات عامة. ولو استعرضنا أسباب أحداث العالم العظيمة، من حروب الصين والتتر، وإيران وطوران، وغارات الفراعنة والإيرانيين، والكلدانيين والآشوريين، والإسكندر والرومانيين، وهجرات الأقوام، وهجمات البرابرة، وغارات آتيلا وجنكيز وهولاكو، وحروب المئة العام، وحملات نابليون، والحرب

العالمية (الأولى) التي سببت أكبر التخريبات- لعلمنا بأنها ليست في الدين، وإنما هي في المنفعة والسياسة.

لم يكن توسع المسلمين سبباً لسفك الدماء بمقياس كبير، لأنه لم تحدث ملاحم كبيرة دموية سوى موقعتي يرموك والقادسية. ولم ترتكب المظالم في أي مكان، وقد دخلت الأراضي المحتلة كلها في حوزة المسلمين مع تبعية أهلها بلا قتال تقريباً. والواقع أن حروباً كثيرة وقعت بين الفرق الإسلامية، بيد أن الاختلافات الأولى منشؤها المنافسة القديمة بين الهاشميين والأمويين، وأشد الحروب الواقعة بين الشيعة وبين السنيين نجمت عن تغلب الأسرتين العثمانية والصفوية، وأطماعهما في التوسع.

وأقسى الحروب الدينية وأكثره إراقة للدماء هي الحروب الصليبية، وقتال الكاثوليك والبروتستانت، وحروب الثلاثين عاماً. ولكن هذه الحروب كذلك ليست كافية لإثبات مسئولية الدين عن الحروب، وهي من مقتضيات الجبلة البشرية، لأنها لا تعد شيئاً في الملاحم العالمية.

ومن الحقائق التاريخية أن عدد النفوس نزل في نهاية حرب الثلاثين عاماً إلى نحو الثلث. ولكن ما مضى قرنان على تلك الحروب حتى اكتسيت النفوس كثافتها القديمة، وبلغت في بداية الحرب العالمية (الأولى) حداً لا تسعها البلاد. ونظراً إلى هذا الحالة؛ فلو لم تحدث الوفيات التي استلزمتها تلك الحروب، ودامت ذرية المقتولين في الزيادة، فأي مكان من ظهر كرتنا كان يكفل لهم حاجاتهم يا تُرى؟!

ربما كانت «جمعية الأمم» التي أنشأها ولسن خادم الإنسانية مانعة لأطماع توسع الدول واستعلائها مدة من الزمن. ولكن إن لم تتكون جمعية أخرى من الأطباء والعظماء، وتتمكن من وضع حد معقول لزيادة النفوس وتكثرها، فلن يمكن الوقوف أمام الاعتداءات والحروب؛ لأن الشعوب والأمم التي لم تقدر على تقسم ظهر الأرض في الماضي، سوف تتنازع لتقسيم بطنها، من أجل ما فيها من الكنوز المعدنية.

الطعن في الإسلام لمادية ثوابه الأخروي:

وأكبر طعون الرهبان والحكماء على الدين الإسلامي موجه إلى أن القرآن ذكر ثواب الآخرة في صور جد مادية، بل في صورة شهوانية على زعمهم. ويبدو أن رجال الطبقة العليا من هؤلاء المعارضين يقومون بمثل هذا الطعن، مقارنين الطبائع البشرية في كل زمان وفي كل مكان، بإدراكهم هم وعرفانهم، ولا يفكرون في أن القرآن لا يخاطب المدرسين وحدهم، وإنما يخاطب الجمهور كذلك. وأما في أيام نزوله فقد كان القسم الأعظم من المخاطبين مساكين، يطلبون الماء من السراب، ويتحسرون على الحضارة طول العمر، ويحاولون وقاية أنفسهم من حرارة الشمس وبرودة الليل بالكهوف وبالأخبية من الشعر، ويئدون بناتهم تقرباً إلى آلهتهم، زاعمين أنهم يحبون النساء[٨٩]! وجزاء الإنسان نيله مرامه ومآربه. فماذا يكون التعويض لمن مُنع عنه نعيم الدنيا غير أنهار الجنة وأشجارها الوارفة الظل، وشراب الكوثر، والقصور والحور والغِلمان؟! فماذا يتصور سكان بريطانيا وبوميرانيا من قُرى أوربا المتمدينة في هذا

العصر، وشبان شوارع المدن الكبيرة- لذة ونعيما أكثر مما ذكر؟ بله البدو من الأعراب قبل ثلاثة عشر قرناً؟! فكل مخاطب بلغة يستطيع فهمها، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم «كلموا الناس على قدر عقولهم».

يُقبل من النصرانية تصوير الجزاء الأخروي بأشد آلام الدنيا، فلم يُعترض على تصوير القرآن جزاء الآخرة بنعيم الدنيا؟

ثم إن اللطائف الأخروية التي يعسر على الناس فهمها بعقولهم الدنيوية، يفهمونها تشبيهاً- ولا سيما الجهال- ولكن لا ينبغي أخذ الالفاظ والتشبيهات كما هي[٩٠]. وليس من شك في أن قُس الكاثوليك والأرثوذكس لا يعتقدون الله في زي شيخ قد انقلبت لحيته الطويلة نهراً، كما يُصور على جدران الكنائس!

إن كان القرآن ذكر أنهار الجنة وكوثرها وحورها، فإنه قد بشر خواص الأمة بأن رضوان الله فوق كل الملاذ «ورضوان من الله أكبر» سورة التوبة ٧٢. وأن النفس لا تدري ما قدر لها من نعيم وملاذ خفية «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانو يعملون» السجدة الآية ١٧. فالآيات المبينة لثواب الآخرة تبشر كل امرئ بنيل ما يراه غاية للسعادة. فخواص الأمة يفهمون منها ما يتصورونه من نعيم علوي في الآخرة. والأمنية الأخروية لعظماء المسلمين هي تجلى نور جمال الله. وقد عبر سالكو الطرق العلية عن السعادة الحقيقية الأخروية بالفناء في الله. ولكن ما التأثير الذي يتركه مثل هذا التبشير في العوام؟

فصل خاص

النتائج المحصلة من التمهيدات التي ذكرت في المباحث المتقدمة

إذا لخصنا التي سبقت حتى الآن حصلنا على النتائج الآتية:

أولاً: لابد من خالق، قديم، حكيم، غير مدرك الذات، واجب الوجود. ويوجد كذلك عالم غيب، لا يمكن إدراكه بالخواص البشرية، ولا تمييز حقيقته بالعقل [٩١]، وحقائق الأشياء في ذلك العالم.

إن تضمن كل شيء خاصَّة خفية، وقوة غيبية- من البديهيات عند أرباب العقل. إن كان الشكل الظاهري للإنسان والحيوان والنبات والجماد مادياً، فإن لطائف الخليقة كالنفس والروح، وخاصة النمو، وقوة الجاذبية- هي من عالم الغيب. فهي تظهر لنا بآثارها، ولكن حقائقها لم تظهر لنا في هذا العالم الجسماني، ولن تظهر. بيد أن الظواهر كلها قائمة بتلك الإحساسات الباطنة. فلو تصورنا انتزاع النفس الناطقة من الإنسان، والقوة الحيوية من الحيوان، وخاصة النبت والنمو من النبات، وجاذبية الجماد، وقوة الذرات- وكلها من المغيبات بالنسبة إلينا- لحظة واحدة، لاختفت الصور والأشكال قاطبة، وصار العالم خليطاً (Cahot). وأغلب الاحتمال أن كل شيء ينقلب إلى قوة ليست لها نقطة استناد، أي إلى عدم. ولا يبقى إلا «وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام».

وليست إفاداتي هذه من التخيل، بل هي من الحقائق العلمية. إذن فثمة عالم غيب كذلك. وإذا صدق بوجود ذلك العالم، فلا يمكن الادعاء باستحالة وجود موجودات لطيفة كالملك، والجن، والشيطان، مهما كانت أسماؤها.

وأما جواز النبوة ولزومها، فيكفي لإثباته ما ذكرت من الأدلة والملاحظات في المبحث الخاص، ولاسيما ما شوهد من الاعتماد على النفس والإيمان والقناعة في دعوة محمد، وما جمع في نفسه من الفضائل الخُلقية، والصدق، والحكمة، في أمر التبليغ.

فالإيمان بالله وبالغيب والنبوة والوحي يعني الإقرار بالدين. فالدين حق من هذه الجهة. وذهاب البشرية إلى دين وعقيدة مذ عرفت نفسها، إثبات لكونه فطرياً طبيعياً.

إني شممت في أثناء ما دار بيني وبين الماديين في بلادنا من المباحثات أنهم يأخذون تعبير «الماديين» بمعنى «الطبيعيين»، وعقيدة «الروحيين» بمعنى المعارضة للطبيعة. وقد نشأ أصل الخلاف مما في هذا الفهم من خطأ. والواقع أن في المصطلحات العلمية تعبير «ما بعد الطبيعة»؛ ومبحث الخلقة في الفلسفة يعد من مباحث ما بعد الطبيعة. ولكن لا يستنتج من هذا التعبير الاعتباري المحض كون فكرة الديانة مخالفة للطبيعة. إن تكن هناك معنوية وروحانية خارج المادية في نظر الإسلام، فكونها غير مادية لا يستلزم كونها غير طبيعية. وقد رُوي أن تعبير «ميتافيزيقا» نشأ عن كون أرسطو قد درس مبحث الألوهية والخلقة بعد

العلوم الطبيعية، كما أني رأيت في كتاب أنسيت عنوانه، أن هذا الاسم نشأ من وضع كتب العقائد وراء كتب العلوم الطبيعية في تنظيم إحدى مكتبات اليونان.

لا يعد الإسلام تبليغاته أموراً فوق الطبيعة، بل بالعكس من ذلك يؤيدها بأمثلة مأخوذة من الآثار والأحداث الكونية الطبيعية (٩٢)، فوجود خالق واجب الوجود لهذا الكون أمر طبيعي. والبشرية مقتنعة بهذه الحقيقة كذلك بسوق طبيعي مع الوحي الديني، والتحقيق العقلي. إن اعتراف الفرنسيين بإله خالق، وتبجيلهم إياه، بعد أن ألغوا العقائد النصرانية في ثورتهم الكبرى، وعجزهم عن التخلي عن عقيدة خلود الروح- لدليل قاطع على أن هذه العقيدة فطرة بشرية طبيعية. بيد أنا لا ندرك حقائق الألوهية وعالم الغيب في عالمنا الجسماني هذا. وقد أثبت في مقدمة هذا الكتاب بأمثلة بسيطة، أن في الطبيعة خواصاً وحدوداً يعجز علم البشر عن التعلق بها وتجاوزها.

وثانياً: الدين كما أنه حق في نفس الأمر، فهو نافع أيضا لهذا العالم الفاني ولازم له. والنصيحة وحب الخير للناس غاية الدين في الدنيا: «الدين النصيحة لله ولرسوله». والدين يضع القواعد الحنفية، ويؤيد اتباعها ورعايتها بالتبشير والإنذار. فالتعاليم الدينية كانت أكثر نفوذاً من أي أمر سواها في قلب البشر وفكره حتى اليوم. وإن كان الدين قد استُعمل أحياناً في أيدي بعض الأشرار وسيلة لارتكاب المظالم، إلا أنه أنتج على وجه عام بقاء البشرية ودوامها.

يقر بنفع الدين ولزومه أعاظم الناس، ممن بلغوا أرفع المقامات بكد أيمانهم، من أفراد أكبر الأمم وأقواها. أنقل في هذا الشأن فقرات عن كتاب عنوانه: «هل يمكن أن يكون المتفننون ديّنين؟» لمفكر أمريكي يدعى مستر وورمن، وهو مترجم إلى التركية بقلم محمد شكري بك. قال المستر كولج الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة بأمريكا في إحدى خطبه: «إن البلاد في حاجة إلى التدين أكثر مما هي عليه الآن. وإني لا أتصور دواءً أنجع وأكثر تأثيراً من الدين في إزالة المساوئ والشرور التي تلوّن بها شعبنا. فليس في الدنيا نظام تربية أو نظام حكومة غير معرض للزوال. كما أنه ليس هناك جزاء أو عقاب لم يفقد تأثيره فيما بعد، إلا ما جاء عن طريق الصلاح والتضحية، وأساس الدين النصيحة، فلا سبيل إلى دوام هذه الحضارة المضيئة ما دمنا محرومين من الإيمان».

واقتبس المستر وورمن من آخر مؤلف للدكتور ولسن رئيس الجمهورية الأمريكية الأسبق الجمل الآتية: «وخلاصة المسألة كلها أن حضارتنا إن لم تنقذ بالمعنويات، فلن تستطيع المثابرة على البقاء بماديتها. ولا يمكن أن تنجو إلا إذا سرى الروح الديني في جميع مسامها، فتحررت وسعدت بما ولد فيها هذا الروح من الحركات. ذلك هو الموضوع الذي يجب أن يجادل فيه كنائسنا ونظمنا السياسية، وأصحاب رءوس أموالنا، وكل فرد خائف من الله محب لبلده». وذكر روبرت ميلكان وهو من مشاهير علماء الفيزيقا بأمريكا- وضع أحدث نظريات الذرة، واكتشف البروتونات والألكترونات ونال جائزة نوبل- في مؤلفاته المختلفة، الجمل

الآتية: «أهم أمر في الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات، وقيمة الأخلاق. وكان زوال هذا الإيمان سبباً للحرب العامة (العظمى). وإذا لم نجتهد الآن لاكتسابه أو لتقويته فلن تبق للعلم قيمة. ويصير العلم نكبة على البشرية أكثر منه سعادة، في حين يكون العلم تحت حكم الدين مفتاح الرقي، وأمل المستقبل. وكل رجل مفكر يؤمن بالله، ولكن يختلف أسلوب هذا الإيمان». وقال شارلز. آ. ألوود رئيس جمعية الاجتماعيين بأمريكا، ومؤلف عدة كتب في الروحانيات والاجتماعيات: «العلم بلا دين عدم»، ثم قال: «إذا كان العلم مفيداً للإنسان ثقافياً واجتماعياً، فلن يقدر على ذلك دون معاونة الدين. فالدين محتاج إلى العلم، ليتعلم منه خير الوسائل الموصلة إلى غاياته، والعلم في حاجة إلى الدين، لكي يستعمل الناس حقائقه القوية استعمالاً صحيحاً، فالدين خير الوسائل لحمل الناس على الحركة على هذه الطريقة».

وأنا أضيف هنا حكمة (وجيزة) من حكم جوته، قال: «وذو العلم والمعرفة يكون ديّناً؛ وإنما يجب التدين على من حُرمهما».

هكذا يرى كثير من العُلماء الذين ذكرت أسماءهم بالمناسبات في فصول مختلفة- أن الدين حق ومفيد في إصلاح البشرية، وضروري لا بد منه. وأما الماديون فليس فيهم رياضيون وفلكيون وعلماء وحكماء اكتسبوا ثناء العالم وغبطتهم أمثال نيوتن، وهرشل، ودكارت، ولاپلاس، ولاڤوازيه، وپاستور، ولا شعراء عباقرة، أمثال ڤكتور هوجو، وجوته، فجميع هؤلاء يؤمنون بالله الواحد، ويعتقدونه مقتنعين- ولو أنهم لا

يصدقون كل ما في النصرانية [٩٣]. وكل ما للماديين من قوة، ففي لسانهم وأقلامهم. فهم يقدرون بمرائهم وجدلهم استغفال بعض أنصاف العلماء والسفهاء، ممن يرغبون في التخلص من القيود الدينية.

وثالثاً: الحقيقة الدينية واحدة؛ لأن غايات كل الأديان من الإيمان بالله والغيب والوحي، وإحسان الإنسان إلى بني نوعه، وتحلية الذات والجنان بمحاسن الأخلاق- كلها غاية واحدة. ومع ذلك نجد فروقاً، قليلة أو كثيرة، بين عقائد الأديان الموجودة، وقواعد أخلاقها. فمن أين ينشأ هذا؟ هذه الاختلافات ليست في أصل الدين. وإنما نشأت من وقوع الانحراف بحسب البشرية، عن القواعد والعقائد الدينية وأسسها، مع مرور الزمن وطول الأمد [٩٤]. إذا أنعمنا النظر في محيطنا، شاهدنا التأثيرات الكيميائية والفيزيقية المختلفة تحدث تحولاً في كل شيء، وفي كل حال في هذه الدنيا. فمثلا تخرج قذيفة من فوهة مدفع أو نحوه، مندفعة على خط مستقيم، ثم ما هي إلا لحظة حتى تحولها الجاذبية الأرضية ومقاومة الهواء من اتجاهها، فتسقط على الأرض. وأثر هندسي معماري خشبي أو حجري، وآلات فنية أو حربية، مصنوعة من الصلب تبلى وتتعفن وتصدأ بتأثير بعض الجراثيم والرطوبة والتاثيرات الجوية، فيزول بسرعة متناسبة معكوساً مع ما يبذل من العناية للمحافظة عليه. كذلك الأحوال الفكرية؛ فطبيعي جداً أن تتأثر ببعض الإحساسات والميول والشهوات الثابتة في الجبلة البشرية، فتنحرف عن الجادة بالصورة عينها.

لقد أنبأ القرآن بانحراف الأديان لطول الأمد، وبلغ الناس الهداية ببعث محمد صلى الله عليه وسلم، ونزول كتابه عليه.

يقول المنكرون إنهم لا يعقلون استثناء الدين المحمدي من قانون الانقلاب الشامل لكل الأديان والأشياء. ولو أنعمنا النظر في الاختلافات المذهبية الخطيرة التي بدت في الإسلام، والظنون والمبادئ الباطلة التي شاعت بين العوام، دون العلم بأسبابها، لوضح لنا تأثير القاعدة الكلية في ديننا أيضاً، ولكن كتاب الإسلام ظل محفوظاً- في حفظ الله- وما في ذلك شك، وقد أجمع الناس على ذلك. فلذلك يمكن تطهير العقائد الإسلامية وتخليصها من الخرافات والتحريفات التي حلت بالعوام، وبعض الفرق الزائغة. «ما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه، وهُدى ورحمة لقوم يؤمنون»- سورة النحل الآية ٦٤. [انظر الخاتمة]. ثم إن عدم مغايرة الأسس الإسلامية للبرهنة العقلية والموضوعات العلمية، وموافقتها لأحدث الآراء الفلسفية، يثبت صحة ديننا، حتى لدى أشد المعقدين، وعُباد الظواهر.

ورابعاً: فليكن شبابنا واثقين من أن الدين الإسلامي لم يكن قط مانعاً من التفنن والتقدم في هذه الدنيا. فقد فتح الإسلام مسالك جديدة للعلم والفلسفة، بعد أن منيا بالتوقف بل بالنسيان، فليست ثمة قاعدة ولا وجيزة إسلامية مانعة من التقدم الدنيوي، وإن صدر بعض هذيان من أفواه بعض من يظهرون في زي العلماء، كقولهم: «حذار من الاعتماد على الهندسة، حتى لا تقع في دائرة تلك الوسوسة»، إلا أنه لا يستند على أي أساس

ديني. ولكن موضع التعجب الحقيقي هو عدم تقدير هذا الشاعر الظاهر ورعُه وتقواه من بيته المذكور لأثر هندسي عظيم كجامع السلمانية، الذي دخله ليصلى فيه، بعد أن أنشد ذلك البيت! لقد بُنيت في أثناء حياة هذا الشاعر مخلدات دينية قريبة من هذا الجامع، وعُبدت طرق خارج المدينة، وبُنيت جسور، وصُنعت الأسلحة والسفن في مصانعنا، بالأيدي التركية. فهلا اهتم هذا المحترم وسأل عن تلك الآثار كيف أوجِدت؟ أكان يحسبها قد أنشئت بخفة اليد؟!

ومما يؤسف له أن خراب دولتنا وهيئتنا الاجتماعية وانحطاطها وتشتتها، قد وقع من أمثاله من الناصحين. ولكن ليست لهفوات كهذه علاقة بالدين. بل بعكس ذلك، كان رأي علمائنا السابقين أمثال الغزالي «إن طلب ما تحتاج إليه الأمة من العلم فرضُ كفاية».

وكذلك ليست في ديننا كلمة واحدة تنهي عن التمتع بالدنيا، على شرط عدم التجاوز لحقوق الغير، وعدم الخروج عن القواعد الخلقية. فهناك أيات كقوله تعالى: «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور» وقوله: «وكلوا واشربوا ولا تُسرِفوا» و «كلوا من رزق الله، ولا تعثوا في الأرض مفسدين». و«ولا تنس نصيبك من الدنيا». وأحاديث كقوله عليه السلام: «من عشق وعف ثم مات مات شهيداً» وكقوله «الدنيا حُلوة خَضِرة، فمن أخذها بحقه بورك له فيها». و«الدنيا خَضرة حُلوة من اكتسب فيها مالاً من حله، وأنفقه في حقه، أثابه

الله عليه، وأورده جنته». فكلها تبيح الملاذ الجسمانية والروحانية، في حدود العِفة والاستقامة، وتحفز على التقدم الدنيوي.

وأما الأقوال المأثورة كالدنيا جيفة، وطالبها كلب. فكلمات متغالية، غير مستندة إلى أي أساس ديني. قد قالها السلف لتحذير الناس من المساوئ، كالسفه والحرص والطمع.

إن الأديان تأمر بالإحسان والإنفاق من جهة، وبالقناعة والإمساك من جهة أخرى، وتنهى عن الحرص والطمع والخسة. وهذا حكمة بالغة. لأن الإنسان المضطر للحصول على أسباب معيشته من محيطه، مجبول على الحرص والأنانية. فلو ترك أفراد البشر على حالهم، لتجرءوا على ارتكاب ضروب من التغلب والظلم، لجلب منافعهم على حساب الغير، وكان هذا مبعث فتنة وفساد. وغاية الأديان الدنيوية منع المساوئ والفضائح، وتأمين حقوق العباد، واطمئنان الضمير، وسَلْم العالم وصلاحه. فالتعاليم الدينية تحفز لا إلى زيادة الحرص والطمع المركوزين في الفطرة البشرية، بل إلى تعديلهما وتليينهما.

لا يوجد دين مروِّج للإسراف والكسل والإهمال، مستحسن للفقر والذلة المترتبين عليها، ومانع عن السعي والكسب، ولا عن الثروة والغنى المترتب عليهما، كما يفهم المنكرون خطأ، أو كمالا يريدون أن يفهموا. والواقع أننا قد ذكرنا بالمناسبة في مبحث «ورسله» زهد النبي في الدنيا- حامدين شاكرين. إلا أن نبينا لم يحمّل أمته الضمير الذي غلبه على نفسه. لقد نسى وجوده كله، وضحى بنفسه في سبيل واجبه المقدس،

ورفاهية أمته وسعادتها. بيد أن أمته قد بلغت بفضله غاية العظمة والشوكة في زمن وجيز، واكتسبت الثروة والرفاهية من كل الوجوه. فالفقر والضيق اللذان منيت بهما الدولة العثمانية، وربما ابتلى بهما كثير من بلاد المسلمين في العصور الأخيرة، يجب ألا تحمّل الأحكام الدينية مسئوليتهما- كما يزعم الملحدون، وإنما يتحملها ارتكاب المنهيات الدينية، والفساد الخلقي، والمساوئ الاجتماعية، كالحرص وحب النفس، والطمع والرشوة، والدسائس والظلم، وما يترتب عليها من الفتن والفساد، وفقدان الأمانة والأمن، وكلها ناشئ من إهمال الأحكام الدينية.

وموجز الكلام أيها الشباب: إن أردتم التفنن والتقدم، وإفادة أمتكم وبلادكم مما اكتسبتم من العلوم والفنون، فكونوا دينين، ومتخلقين بالأخلاق الإسلامية الكريمة، حتى تكتسبوا القوة المعنوية والمتانة القلبية، اللتين يمنحهما الدين، لتكونوا في أعمالكم ناجحين.

تلخيص التلخيص:

استخرج خلاصة الخلاصة من تمهيداتي، فأقول مكرراً:

أولاً: الدين حق.

وثانياً: الدين نافع في الأمور الدنيوية، ولازم لها.

وثالثاً: الحقيقة الدينية واحدة لا تتغير. والاختلافات التي بين الأديان نشأت من الانحراف عن أساس الدين بمرور الزمان. ولما كان القرآن

وحده لم يمسسه التغير، فالحقيقة الدينية القديمة الثابتة، هي الحقيقة الإسلامية. وعدم تعارض العقائد الإسلامية والأمور العقلية والمكتشفات العلمية مؤيد لهذه القضية.

ورابعاً: إن الاتباع لبعض تحريضات الغربيين ومفترياتهم، وبعض المقالات الفارغة مما يكتبه لابسوا زي العلماء، والحكم بأن الدين مانعٌ للرقي- خطأٌ كبير. والدين الإسلامي على العكس من ذلك، مشوق حافز إلى التفنن والتقدم. وقد ثبتت هذه القضية وتأيدت بالآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، والحوادث التاريخية. فاستمساك شعبنا بحبل الإسلام المتين، مما تقتضيه مصالحه الشخصية، ومنافعهُ القومية.

obeikandl.com